فقه التغيير والنهضة (١)

رصد الظواهر

هكذا نحن ...

إبراهيم السكران

Scanned with CamScanner

فقه التغيير والنهضة (١)

رصد الظواهر

هكذا نحن ...

إبراهيم العسعس

Scanned with CamScanner

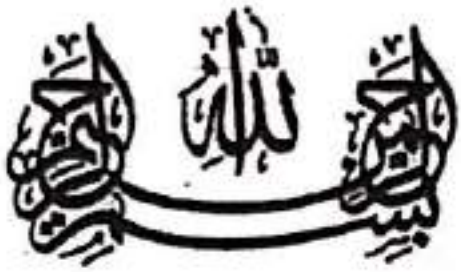

Scanned with CamScanner

المقدمة

الحمد لله والصلاة على رسول الله وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً ...

«اللهم إنّا نعوذ بك من أن نكون ممن يُحسن القول، ويُسيء في العمل».

بسم الله نبدأ، وعليه نتكل، ومنه نستمدُّ، وبنوره نهتدي. ربنا هب لنا وعياً يُؤهلنا لحمل دينك، وامنحنا فهماً يَرتقي بنا إلى منزلة العبودية، ويسِّر لنا إرادةً نُحسِنُ بها عبادتك، وتعبيد الخلقِ لك، كي نستحقَ منزلةَ «إياك نعبد». اللهمَّ إنّا نسألكُ إدراكَ النقطةِ التي نقفُ عليها، لنعرف تلك التي نريد الوصولَ إليها، ونسألكُ الجرأة لتغيير أنفسنا وواقعنا، ونسألك قراءةَ من يعقلون لتحقيق كل ذلك، وجنبنا اللهمَّ قراءة الأماني والأميين.

أما بعد...

فهذا هو الكتاب الأول من سلسلة «فقه التغيير والنهضة» التي تسعى لإحياء ثقافة النقد، ورفضِ ثقافة الصمت، وتنميةِ الوعي، وكشفِ «تنمية» التخلف. وإحياء نهج السادة في القيام والبيان.

هذه السلسلة محاولةٌ لإحياء فهم الإسلام؛ من حيثُ هو طريقة حياة، ومن حيث هو نظامٌ متكامل موضوعُه الإنسان، وغايتُه تغييرُه

وتحريرُه، لتأهيله لعمارة الدنيا، وقيادة البشرية؛ ليكون -من بعدُ- أهلاً للنجاة في الآخرة. وإنَّ هذه السلسلة جُهد لإعادةِ تشكيل الشخصية المسلمة التي أنهكتها الأمراضُ نتيجة ظروف الانحطاط.

... إنَّ هذه السلسلة تدور جهودُها حول محورٍ واحد؛ هو محورُ النهضة والتغيير. فماذا نعني بالتغيير؟!

الإجابة على هذا السؤال المهم تقتضي إطالةً لا محلَّ لها في هذه المقدمة المختصرة، خاصةً وأنَّ حلقات السلسلة هي في الحقيقة بيانٌ لهذا الموضوع ولغيره مما سبقت الإشارة إليه.

ويكفينا في هذا السياق أن نُشير إلى مجموعةٍ من القواعد الأساسية التي تُمثل وجهة نظرنا في التغيير منهجاً وأداةً، وفي غيره من القضايا، والتي نرى أنه لا يمكن أن ينجح أيُّ جهد في التغيير إلّا إن راعاها في مشروعه، وهي -من قبلُ ومن بعدُ- ستكون موضوع هذه السلسلة، وستكون مشروعها.

أولاً: إنَّ مفهوم التغيير السائد يحتاج إلى مراجعة وتحديد، لذلك فإنَّ جهدنا سينصب على تغيير «مفهوم التغيير»!!!

ثانياً: التغييرُ حدثٌ من الأحداث التاريخية التي يصنعها البشر. وإرادة الله سبحانه في إنفاذ هذه العملية متوقفة على إرادة البشر؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد: ١١]، فالقرار بيد البشر وقانونُ الحياة تبعٌ لهذه الإرادة.

Scanned with CamScanner

وإنَّه لقانون عظيمٌ هذا الذي تُقرره الآية من أنَّه «إذا تحرك الإنسانُ تحرك المجتمعُ والتاريخُ، وإذا سَكَنَ الإنسانُ سَكَنَ المجتمعُ والتاريخ»، وأنه «غيِّر نفسكِ تُغيِّر التاريخ» كما يقول مالك بن نبي رحمه الله.

ثالثاً: الإسلامُ اليوم كما يمارسه المسلمون هو بالضبط ما أدانه محمدٌ ﷺ! «إنَّ أيَّ محاولة للإصلاح تقوم على أساس أنَّ الأسلامَ موجودٌ في الحياة، فهي محاولة فاشلة ...؛ إذ من الجهل أن يُقال إنَّ الإسلام موجودٌ في الحياة» كما يقول النبهاني رحمه الله.

رابعاً: إنَّ الوعي على أهمية التغيير لا يكفي (هذا على فرض أن إدراك الأهمية أمر حاصل، وهو أمر لا نعتقد وجوده)، فلا بُدَّ أن تكون هناك رغبة في التغيير، وقدرة على التغيير.

خامساً: لا سبيلَ إلى التغيير بمجرد توفر جانب من المعرفة الصحيحة، أو حتى كل المعرفة الصحيحة عند النخبة التي قامت أصلاً للتغيير، مع بقاءِ هذه النخبة ترزحُ تحت تخلف الواقع في سلوكها الاجتماعي، بل وتستمر تحمل تخلفها لم تفقد منه شيئاً، بل هي تخشى أن تفقد منه شيئاً! وتحافظ عليه كما يحافظ أحدُنا على ولده. إنَّ الذين يتعاملون مع المفاهيم كاللباس الذي يلبسونه على أبدانهم، دون أن ينفذ منها شيءٌ إلى وجدانهم، لا يمكن أن يُحققوا تغييراً ولو كان مِدادُ ما يمتلكونه من معرفة يمدُّه البحر من بعده سبعةُ أبحر.

سادساً: إذا جاز لنا أن نضع جدولاً لأولويات العمل النهضوي،

Scanned with CamScanner

فإنَّ التغيير يجب أن يكون على رأس هذه الأولويات، إذ إنّه موضوعُ الساعة، وحُقَّ له أن يكون كذلك.

سابعاً: بين مُسلم العصر وبين الإسلام رُكامٌ هائلٌ من الانحرافات والطبائع المُترسخة عبر أجيال من القهر والجهل والتحريف والحرب الثقافية، والتي حالت بينه وبين تمثله تمثلاً حقيقياً صحيحاً! إنَّ الإسلامَ كما هو ليس له وجودٌ في وَعْينا! وإنما انفصاماتٌ، لا انفصاماً واحداً، تلك التي يعيشها المسلمُ اليوم.

وقد كان موضوع الجزء الأول منها وصف بعض المظاهر السلبية في حياتنا، والتي أعاقت حدوث عملية التغيير وهي فصول كتبتها على مدى سنوات يجمعها كلها أنها تصفنا كما نحن، فهي فعلاً: هكذا نحن ...

نسأل الله الكبير المتعال أن يهدينا رشدنا، وأن يجعلنا هُداة مهديين، وأن ينفعنا وأن ينفع بنا، والحمد لله رب العالمين.

إبراهيم العسعس

E-mail: taghyeer-ibrahim@hotmail.com

www.altaghyeer.com

Scanned with CamScanner

«أسئلة النهضة»

«إنَّ قيمةَ عملنا تكمن في قدرتنا على تغيير العالم»

(قول منقوش في قلوب العظماء)

تقول العرب: «من تمام الضيافة الطلاقة عند أول وهْلة»، فقد كانوا يعدون التلقي بالبِشر والتأنيس من حقوق الضيف، ومن تمام الإكرام له.

وها أنا ذا أخالف عادة قومي فألقاك -وأنت ضيفي- بالأسئلة! ولا زال السؤال ثقيلاً على النفوس، مزعجاً للعقول، مخالفاً لآداب اللقاء. فكيف إذا كانت الأسئلة من ذلك النوع الذي يصدع العقول، ويحرك الساكن، ويَفْجأ من نام على الأوهام، ويلطم من استراح إلى العوائد؟!

وعلى كل حال فإن عذري أن القرآن الحكيم عندما أراد أن يحرك النفوس، ويحفز العقول بدأ بإثارة الأسئلة، فنحن في هذا للقرآن مقلدون، وعلى نهجه سائرون.

... هناك أسئلة كبرى علينا أن نبدأ بها قبل أن نمضي في بحثنا. هذه الأسئلة أرضية أساسية لفهم ما نحن بصدده، كي يكون تواصلنا فيما بعد تواصلاً سليماً مؤسساً على منهج واضح. على أن هذه الأسئلة قد صيغت بطريقة فيها نوع إجابة لمن تدبر.

Scanned with CamScanner

والذي أطلبه من القارئ أن يفكر ملياً في هذه الأسئلة، وأن يُقلِّب طرفه فيها، ولا يمر بها مرورَ العَجِل، الذي ينتظر نهايتها.

فإليكموها فلعل وعسى:

- هل الإنسانُ المسلمُ إنسان؟!

- هل يفهم المسلم التوحيد فهماً مُحرِّكاً؟ يعني هل يفهم الوظيفة الاجتماعية للتوحيد؟

- هل تحرَّرَ المسلمُ المعاصرُ من داخله تحرراً حقيقياً؟

- هل يمتلك المسلم رؤية واضحة للعالم الذي يعيش فيه؟

- هل يمارس المسلم عملية نقد صحيحة للواقع؟

- هل القراءة التي يمارسها المسلم قراءة تستثير وعيه بحقيقة الظلم مثلاً؟

- هل جرَّب أحدنا أن يسأل نفسه سؤالاً بسيطاً: هل أعرف نفسي؟

- وهل تجاوبنا مع القرآن في دعوته لنا لاكتشاف أنفسنا؟

- هل نمتلك كرامتنا في بلادنا؟ هل من مجادل في أننا عبيد أولاد عبيد؟

Scanned with CamScanner

(العبيد لا يحاربون ولا يصونون أوطانهم، إنهم يصنعون طغاتهم وأغلالهم بأيديهم)

- هل مارسنا عملية تشخيص صادقة وحقيقية لأمراضنا؟ وقبل ذلك هل نعرف أمراضنا؟!

- هل الصحوة الإسلامية المعاصرة تمتلك مقومات الصحوة فعلاً؟

- وهل أنتجت الصحوة لدى الذين تجاوبوا معها -فضلاً عن باقي الأمة- وعياً وَضَعَهم على أول خطوات اليقظة؟

- هل استطاعت الحركة الإسلامية بلورة مطالب الإصلاح؟

- بمعنى آخر: هل حددنا موضوع الإصلاح، هل شخّصنا أهدافنا؟

- هل تغير ما بأنفسنا من التقاليد البالية، والتدين المنحرف؟

- هل طور الخطاب الإسلامي المعاصر المسْلمَ أم شوّهه؟

- هل وصل فكر النهضة لدينا إلى مستوى النظر الكلي، أم لا زال يدور حول الهمّ الفردي؟

- هل ناقش فكرُ النهضة عِلَل التدين التي أنتجت المسلم المعاصر،

Scanned with CamScanner

- هل هناك سعي منّا لتوجيه حركة التاريخ؟

- هل سبب تخلفنا نقصٌ في معلوماتنا، أم إن الذي ينقصنا إعادة التأهيل، وإعادة الصياغة؟

- من الذي أفشل التغيير والنهضة في العالم الإسلامي، البيئة أم المؤسسة الحاكمة؟ نحن أم الحكام؟ المصلحون أم الاستعمار؟ (إننا نستبطن في دواخلنا كل أمراض الإنسان الذي ورثناه من عصور قديمة، إننا نستبطن كل سلبيات من نتقدهم فنحن نحب أن نتمثل حياة ظالمينا، لماذا لم يتغير شيء بالرغم من تغير الوجوه؟).

- هل يحتاج العمل الإسلامي إلى مراجعة؟ أم ليس بالإمكان أفضل مما كان؟ (لا بد من المراجعة وإلا تحولنا إلى مرحلة زمنية).

- أليس التوازن في شخصياتنا هو بداية التغيير الحقيقي؟

- كيف يتحقق التغيير بأمة تفتخر بأنها أغلقت باب الاجتهاد؟

- ما الشيء المهم الذي قاله الإسلام للعربي في ذلك الزمان؟ (قال له: أنت مسؤول، لا اتكالية بعد اليوم بل اعتماد على النفس وبهذا الإحساس نشأ الجيل الأول. لم يعد يقول: ماذا أفعل، وماذا في يدي؟ أنا مجرد عبد؟

Scanned with CamScanner

- هل نؤمن إيماناً حقيقياً بمسؤوليتنا عن أفعالنا، عن حياتنا، عن فسادنا، أم نحن جبريون تجذّر الجبر في شخصياتنا متنقلاً إلينا عبر القرون؟ (لدينا قناعة داخلية بأنّ ما نعيشه من عناء هو من قدر الله، ولذلك فإننا ننتظر قدراً آخر ليغير حالنا. فكيف سنتغير؟).

- كيف يمكننا إحداث التغيير الذي ندعو إليه إذا لم نقنع أنفسنا بأهميته؟

- هل تجاوزنا سؤال: هل يمكنني؟ إلى سؤال: هل سأفعل؟ متى سأفعل؟ إن لم يكن اليوم، فمتى إذن؟ وإن لم يكن أنا، فمن سيكون؟

- كيف سنقوم بالتغيير ونحن لا نفرق بين المشكلة الحقيقية وبين الأعراض الخاصة بها؟

- فَهم القدر أول منازل التغيير والنهضة، فهل فهمناه؟

- لمّا انحرف مفهوم القدر، ألغيت فكرة المسؤولية، ألا يعني هذا عبثية المبادرة إلى التغيير؟

- نحن نقبل بالوضع تسليماً بالأمر الواقع، وانتظاراً لظروف أفضل، فكيف سيحصل التغيير؟

(على الرجل أن يعمل حتى ينكشف له القدر).

Scanned with CamScanner

- هل نستطيع التغيير دون تغيير القابليات، وتغيير المشاعر السلبية؟

- هل أعطتنا ثقافتنا استجابة للواقع؟

- ما هو الوعي الذي نفتقده؟

- هل ندرك بأنَّ الحياة مجال يتشكل بحسب تصرفنا فيه؟

- ما هي أزمة الأمة الحقيقية التي تحول بينها وبين نهضتها؟ وبماذا تبدأ معركة النهضة؟

- لا تغيير بلا منهج، هل أضعنا المنهج؟ وما معنى إضاعة المنهج؟

- ما هو مقياس التدين عندنا؟

- هل يمكن أن نقوم بعملية التغيير في حين أن ثقافة الصمت تحكم حياتنا، وتشكل خياراتنا؟

- هل نحن مبرمجون لنتوافق مع الواقع؟ (تمت أقلمتنا بواسطة ثقافة الصمت. والتعليم المحايد).

- لماذا ثقافتنا تمنع التفكير، وتؤقلم الإنسان على ظروف القهر، وتُعطّل إبداعه؟

Scanned with CamScanner

- كيف نغير ولا ثقة فيما بيننا؟

- هل مناهج وسلوك الجماعات التي تدعو إلى التغيير يوحي بأنها تختلف عن أجهزة الأمن التي تشكو منها؟

- هل ندرك أنَّ الهجمة ليست على الإسلام وإنما على منع عودته؟

- هل يمكن نقد الواقع بصدق ووعي ونحن جزء من هذا الواقع؟

- هل يمكن التغيير عن طريق التعليم النظامي، أم لا بد من برامج تعليمية خارج إطار التعليم النظامي؟

- لحصول التغيير، هل يكفي الإحساس بالواقع، أم لا بد من نقده؟

- هل يمكن أن يتم التغيير بصحبة الغرور؟ (ادعاء امتلاك الحقيقة!).

- هل يمكن التغيير دون إحياء نظام العبودية؟

- ما دام الذي يقوم بالتغيير يحمل داخله ختم وصورة الوضع الذي يبغي تغييره، فكيف سيغيره؟

- هل يمكن أن يقوم المذهبي بالتغيير؟

Scanned with CamScanner

- ظاهرة طول الأمد، كيف تقف أمام التغيير؟

- هل يمكن إجراء مراجعات دون أن نراجع: المرجعية، وقضايا المنهج والفهم؟

- هل نستطيع أن نقول إن ما حدث عام (٦٠) هجرية مفصل أساسي في تاريخنا أدّى إلى كل ما نعيشه؟

- هل كانت المؤسسة الحاكمة مؤسسة خلافة حقاً، أم كانت وراثية ملكية بلقب أمير المؤمنين؟

- ما هو المجهود الذي يجب بذله للتغيير الحقيقي في مجتمع يعاني من القهر والسلبية؟

- النقد تشخيص، كيف نفهم دون تشخيص؟

- موضوع التغيير هو الإنسان، فلا بد من معرفة أين يقف هذا الإنسان، وكيف نبدأ معه؟

- التغيير لا يأتي بلا مقدمات وأسباب، التغيير علم له أسس وقواعد، فهل نعرفها؟

- هل يورث التعليم لدينا قدرة على نقد الواقع؟

Scanned with CamScanner

- هل يكفي تغيير الأشكال أم لا بد من تغير مجرى النهر؟ تغيير الهيكل الاجتماعي.

- ما هي قصة التصويب الذاتي، وتصويب المرآة؟

- ماذا عن الفرائض الغائبة؟ (التفكير كمثال).

- هل يشعرنا التعليم والخطاب بالتناقض بيننا وبين واقعنا؟ التغير زيادة، فهل يقف التغير عند حدٍّ؟

- هل تشعر بالتناقض، هل تشعر بالقهر الذي نعيش فيه؟ هل تسعى إلى إزالتهما؟

- ثقافة الشرك وثقافة التسلط؛ كيف نُغيرها؟

• • •

Scanned with CamScanner

«مجرد كلام»

الكلام... تلك النعمة العظيمة التي خصّ الخالق بها الإنسان، وامتنّ بها عليه، أليس قد قال سبحانه: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾؟!

وليس ذلك لأنها الوسيلة التي لولاها لما تواصل الناس وتفاهموا وحسب. ولكن لأنها تعني أن الإنسان هو المفكر الوحيد من بين مخلوقات ربّ العالمين.

هذه النعمة؛ على الإنسان أن يستعملها بحرص، فلا يبذرها باسطاً بها لسانه كلّ البسط! فكيف نتعامل مع هذه النعمة العظمى، والمنحة الكبرى؟!

نحن الذين علّمنا نبينا ﷺ أنّ الصمت علامة الإيمان لمن لم يجد خيراً يقوله.

ونحن الذين قال شاعرنا قديماً:

جراحات السّنان لها التئام ولا يلتام ما جرح اللسان

ونحن الذين قال حكماؤنا: الصمت حِكَمٌ وقليل فاعله!

ونحن الذين قال بلغاؤنا: البلاغة هي التعبير عن المراد بأوجز عبارة!

Scanned with CamScanner

أما العوام فحدّث ولا حرج عن لغوهم، وتوسعهم في الكلام الذي لا قيمة له، ولا طائل تحته. وهؤلاء لا كلام لنا معهم، لأنَّ كلام العوام لو ضربته بنفسه مئة مرة فستكون النتيجة: كلام عوام!

أما المشكلة الكبرى، والداهية الدهياء فهي في كلام العلماء والمثقفين و...و.... إلى آخر القائمة «الخاصّة»!

وإذن تعال معي لتتدبر نماذج من كلام هؤلاء:

– تقرأ في مقدمة كتاب ما كيف أن المؤلف تمنّع كثيراً عندما عُرِض عليه أن يصنف، وكيف أنه اعتذر بأن بضاعته مزجاة –أي قليلة–. ولكنه وبعد طلب من لا تجوز مخالفته. شمّر عن ساعد الجد، ونفض القلم نفضة فأخرج لنا هذا الكتاب «الذي لم تر العين مثله، ولم يَجُد الزمانُ بمثله»! فليت شعري، لِمَ التمنع الذي لا معنى له، والاعتذار بقلة البضاعة بداية؟! ثم لماذا هذه الدعوى العريضة التي لا تتناسب مع الاعتذار المتقدم؟!.... إنه مجرد كلام!

– يحدث أن يصادفك أحدُهم فتنهمر عليك تحياته: «السلام عليكم، حياكم الله، مشتاق والله، طمئني عنكم»؟ ومن حرارة الكلمات تصدق بأنه مهتم بصحتك، مكترث لحالك. فتسرد له أحوالك، وتشرح له عن صحتك.... ثم وبعد عناء الشرح، ولذة الشعور بأن هناك من يقلق عليك،

إذا به يسأل مرة أخرى: وكيف صحتكم؟ فتدرك أنه لم يسمع شيئاً مما قلت!... إنه مجرد كلام!

- يكتب بعض طلاب العلم عن التقوى والأمانة، وضرورة عدم التلاعب بالعلم، وحتمية الدقة في النقل عن الآخرين! كلام جميل! أليس كذلك؟ ثم تُفاجأ بعد الإطلاع أن كتاب ذاك «التقي الأمين» مسروق برمّته! وتكتشف، وبكل بساطة أن التنظير السابق ما هو إلا.... مجرد كلام!

- ويكتب آخرون عن ضرورة فتح باب الاجتهاد، ويكون على غلقه، ويذمّون التعصب، ويُروجون لحرية التفكير. فإذا صدقتهم وتشجعت فخالفتهم، طعنوك بألسنة حداد، وسلخوا جلدك عن عظمك، ولم يراعوا فيك إلًّا ولا ذمّة! ولسان حالهم يقول لك: أصدقتنا يا مسكين، إننا ندعو لفتح باب الاجتهاد ولكن على أن تبقى مفاتحه عندنا، وعلى أن تكون حرية التفكير لنا وحدنا، والتعصب مذموم إذا مَسَّنا، وغير ذلك.... فمجرد كلام!

- تجلس في اجتماع يقطع فيه الجالسون الوعود على أنفسهم، وتحمر الأنوف، وتنتفخ الأوداج، وتتسع الحدقات. وفي الموعد المضروب، يضرب على كل الكلام، فلا تقبض إلا على الريح، ولا تمسك إلا الماء! لماذا؟ لأنه لم يكن إلا... مجرد كلام!

Scanned with CamScanner

- وفي نفس المجلس، يبتسم الكلُّ في وجوه الكل! ويحيي بعضهم بعضاً، ثم.... ثم لا يخرج أحد إلا ويُجلد ظهره! وهكذا حتى تخشى الخروج وتتركهم خشية طعنك، وتتمنى لو أن المجلس انفضَّ وأنت موجود ضناً بعرضك أن يجلدوه!... إنه مجرد كلام!

- وتقرأ في الصحف، فإذا التاريخ يزوّر، بل واللحظة تزور، وبأقلام «كبار» الصحفيين!... إنه مجرد كلام!

لا قيمة للكلام عندنا، ولا وزن للوعد! فقد يُدبّجُ الإعلامُ الكلام في تسويغ ما يشاء، حتى لو كانت الهزيمة! وفي تشويه ما يشاء حتى لو كانت الفضيلة!

لدينا المقدرة على الكلام أربعاً وعشرين ساعة متواصلة! وفي النهاية:
.. لا شيء! هراء، هباء!... مجرد كلام!

نمارس النفاق والكذب صباح مساء، نتكلم بغير ما نعتقد، ونظهر غير ما نبطن! نتمضمض بكلمات الترحيب والحبّ ونقذفها في وجه من نبغض! ونستطيع تقديم مئات الأعذار، ونحن لا نقصد منها عذراً واحداً... واللغة تسعفنا! فهي حمالة وجوه!!

والطامة أننا نتحدث عن النصر، والعفو، ونحن في قاع الهزيمة، وتحت الأرجل! أيام الاستعمار البريطاني لفلسطين كان المنشد في «الدبكة»

Scanned with CamScanner

يرفع عقيرته، ويصيح: «لندن مربط خيلنا»!!! حدثني الكبار أن المندوب البريطاني كان حاضراً، فيضحك.. ويضحك... ولم يكن يغضب، لأنه يعرف أنه.... مجرد كلام! لكنه كلام عوام و«مجرد كلام» العوام: مجرد كلام! أما «مجرد كلام» العلماء والمثقفين، فهو كبيان نابليون لأهل مصر عشية احتلالها!

... فقد اعترف نابليون بعد سنوات من دخوله مصر، بأن البيان الذي ألقاه على أهلها، معلناً فيه إسلامه، وأنه لم يأت إلا لينقل مصر من عصور الظلمات إلى عصر النور، ومن قيود العبودية إلى سعة الحرية، والحكم الذاتي!

قال نابليون عن ذلك البيان:

«إنه محض دجل، ولكنه دجلٌ من طراز رفيع»!

يعني أنه مجرد كلام!!!

● ● ●

Scanned with CamScanner

«كيف نقرأ»!

في إحدى القرى...

طرق «ساعي البريد» الباب، خرج الأبُ، فسلَّمهُ الساعي رسالةً، وقال: إنّها لابنتك!

لم يكن الأب يعرف القراءة، وبدأ الفأر يلعب بِعبه -كما يقال في العامية-، مِن أين أتت الرسالة؟ وهل تكون البنت...؟! وما مضمونها؟ خرج مسرعاً إلى الطريق لعلَّه يجد من يقرأ له الرسالة لتطمئنَّ نفسُه. وجد معلمةَ المدرسة في الطريق، فقال: هذا هو المطلوب، أتقرئين لي هذه الرسالة التي وصلت لابنتي؟ سأل الأبُ... بالطبع، أجابت المعلمةُ، فضَّت الرسالةَ وبدأت بالقراءة... قرأت له رسالةَ غزل موجهةً لابنته من أحدهم! حمل الأبُ الرسالة ومضى غاضباً، في الطريق لقي ابنَ صاحبِ البيت الذي يسكن فيه، فطلب منه أن يقرأ له الرسالة، يريد أن يتأكد! فقرأ الشاب، فإذا هي رجاءٌ من صاحب البيت للبنت أن تُذكِّر أباها بضرورة دفع أجرة البيت المُتراكمة عليه، عارضاً لها سوءَ الأحوال، وضيقَ ذات اليد! ما هذا؟! أصبح عندنا قراءتان لرسالةٍ واحدة! صاح الأبُ، فما هي حقيقة الرسالة؟! لا بدَّ من ثالث ليُبيِّنَ لي ما في الرسالة. فإذا بأحد الشباب الذي ينتظرُ فرصتَه للعمل أو السفر، أعطاهُ الرسالة بعد أن شرحَ له الحال، قرأ الشاب، فتحدَّث عن صعوبة العيش في القرية، وقِلّة فُرص العمل، وأنَّ من يُهاجر

يجد فرصته في بلاد الخواجات! شدَّ الرجل شعرَ رأسه، وصرخ: ولكن، أين هي الحقيقة؟! فلم يسمع إلاَّ صدى صوته، مع ضحكات من حوله من قُرّاء الرسالة!! لقد رأى كلٌّ منهم في الرسالة ما يُحبُّ أن يرى، وما في نفسه، لا ما هو موجود فيها فعلاً! لقد انعكست آمالُ كلٍّ منهم، ورغباته، وطبائعه على الرسالة فلم يعُد يرى غيرها! وهكذا ضاعت الحقيقة بين هذه الآمال والرغبات والطبائع.

الحقيقة الضائعة:

إنها قصة تقع، وإن لم يكن بحرفية هذه القصة، إذ إنَّ جانب الرمزية والمبالغة الدرامية واضح فيها! وهذا كله غير مهم، فالذي يعنينا الفكرة العميقة والخطيرة التي أرادت القصة توصيلها. إنَّها تتحدث عن الحقيقة الضائعة عندما تتحول القراءة إلى حوار مع النفس، يقرأ من خلالها القارئ ما في نفسه لا ما هو مكتوب! وفي هذه الحالة تفقد القراءة قيمتها وغايتها، فالكلمة هنا لا دلالة محددة لها، لأنَّه بمثل هذه القراءة تصبح دلالة الكلمة لا نهاية لها، إذ يُمكن أن تكون دلالاتها بعدد ما على البسيطة من قرّاء! ومع الأسف الشديد هذه القراءة هي قراءتنا! ومعنى هذا ليس فقط أنّنا لا نقرأ! بل عندما نقرأ، نقرأ قراءة خاطئة! مُسيَّرة! قراءة أميَّة!!

Scanned with CamScanner

قراءة أميّة؟!:

وكأنها جملة ينقضُ آخرُها أولَها! فكيف تكون قراءةً، وأميّةً في الوقت نفسه؟! إنها لكذلك عندما تكون القراءة مجرد «فكِّ» الحرف دون فهم! وبلا ربط بين أول الكلام وآخره! وبين الكلمة في مكان وغيرها من الكلمات في مكان آخر! وبين قراءة الكلمة وقراءة الكون، أو قراءة الواقع! هذه القراءة سمّاها القرآن الحكيم: أميّةً! وعدّ الذين يقرؤونها: أميُّون!: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ، وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨]. الأماني هي القراءة بلا وعي، ولذلك قال ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولم يقل (لا يقرؤون)! فالقرآن يعدُّ الوقوف عند مستوى قراءة الحروف ضرباً من الأميّة.

فكيف نقرأ؟

سأذكر ما نحن عليه، وما ينبغي أن نكون عليه في سياق واحد اختصاراً، فالقضية التي نتحدث عنها كثيرة الذيول، عميقة الأبعاد، تحتاج لكتاب مُسترسِل!

- هل نقرأ (باسم الله)؟! لا تتسرع في الإجابة وتقول: بدأ صاحبنا يُخلّط! فكلنا نبدأ قراءتنا (باسم الله)! وأنا أقول، وهو كذلك، فنحن قبل أن نقرأ نبدأ (باسم الله)، وقد يأخذ منّا الثناء على الله، والحمد له سبحانه صفحات، فهل هذا هو الذي طلبه الله تعالى في أول كلمة نزلت في آخر

Scanned with CamScanner

رسالة؟! ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾. إنَّ أبعاد القراءة (باسم الله) كَسَعَةِ هذا الكون، حسبنا منها الإشارة إلى ما نحن بصدده، أعني القراءة التي تُحقِّق هدفها. إنَّها استحضار رقابة الله حذراً من الوقوع في الطغيان؛ الطغيان في الفهم، فحمل النفس على الفهم تكليف. الطغيان في الدخول على النص وقد قرّرنا ما نريده ممّا لا نريده قبل أن نقرأ حرفاً! إنها (باسم الله) التي تقينا هذه المصارع. وكما بيَّنَتْ لنا النصوص أنَّ القراءة بلا علم ضلال، بينت لنا أنَّ القراءة دون (باسم الله) طغيان.

- **القراءة الذريّة**: وهذه القراءة تُفكِّكُ النص، بل وتُفكِّكُ الجملة، وأكاد أقول: بل وتفككُ الكلمة! إنَّها تغوص في الكلمة وتعزلها عما حولها، ثم تخرج منها لتدخل فيما بعدها دون أيِّ رابطٍ بينهما! إنَّها قراءة (تقصيص) النَّصّ وتفهم -هذا إنْ فهمت- كلَّ جملة، أو كلَّ كلمة بعيداً عن سياقها، ولذلك فإنها تبني على كلِّ كلمة قراراً وقضية جديدة لا علاقة لها بقضية النص الواحدة، بمعنى أنها تمتصُّ -ولا أقول تفهم أو تستنتج! لأنَّ صاحب هذه القراءة يتفاعل مع النص تفاعلاً غريزياً فلا يستطيع أن يفهم!- من كل كلمة، أو جملة قضية منفصلة! إنَّ النص في هذه القراءة يتكون من مجموعة من الجزر المنعزلة عن بعضها!

يقابل هذه القراءة، **القراءة الإحاطية الشمولية**، التي تستعرض النصَّ كلَّه، لتفهم منه ما يريد. وصاحبُ هذه القراءة يُدرِكُ أنَّ أيَّ استبعاد لأية كلمة -قصداً أو سهواً- سينتهي إلى نتائج لم يُردها النصُّ، وأنَّ الفرق بين وجود حرف وعدم

Scanned with CamScanner

وجوده تترتب عليه قضية هائلة رهيبة، قد تكون كالفرق بين الكفر والإيمان، كما حصل مع من قرأ سورة (الكافرون) وهو سكران! إنَّ سوء الفهم يعود إلى أنَّ القارئ يتناولُ النص، أو ينظر إليه من زاوية معينة لا إحاطة فيها، ولو سعى القارئ إلى امتلاك مهارة القراءة الشمولية، وتناولَ النَّصَّ من مُختلف الزوايا لَبنى فيما بينه وبين الكاتب جسراً متيناً من التواصل والتفاهم.

- القراءة العصافيرية!!: وأعني بها القراءة التي لا تَراكُم فيها. فصاحبُ هذه القراءة لا يبني شيئاً، يعيش مع النصِّ في لحظة زمنية مُجمَّدة، وقد يستمتع بقراءته، وقد يبكي ويضحك، ثم بعد ذلك كأنَّه لم يقرأ شيئاً! فذاكرته مخرومة، مُستباحة، لا تُمسك ماءً ولا تُنبِتُ كلأً. قُدرته على الاستحضار معدومة، والأمر عنده أُنُف، دائماً يبدأ من جديد، فهو بالضبط كالعصفور الذي لا تاريخ له، يقع في نفس الفخِّ الذي وقع فيه قبل قليل! فكيف تتوقع أن يبنيَ هذا النَّمطُ حواراً مع النص بقصد الوصول إلى الفائدة والتفاعل؟!

- يقابل هذه القراءة، **القراءة التراكميَّة**، وهي قراءة تبني على ما سبق، وتربط اللاحق بالسابق، لِتتكوَّنَ من بعدُ مجموعةً من الأفكار والفوائد المتراكمة، بها يستطيع القارئ أنْ يَلِجَ إلى النصِّ ليفهم عنه ويتفاعل معه.

- القراءة الغرائزية: ولئن سألتَ صاحبَ هذه القراءة، لماذا تقرأ؟ لقال لك: أنا أقرأ لأنني أعرف القراءة! وأمتلك كُتباً! وعندي حاسوب!

Scanned with CamScanner

وأزيدك: أنا رابط «انترنت»!!! فلماذا لا أقرأ؟! فهل يستطيع هذا القارئ أن يفهم النص، ويتفاعل معه؟! إنَّ القارئ الغرائزي ينظر إلى النصّ -ولا يُبصره-!! نظر المغشيِّ عليه من الموت!! ويُفكك حروفه تلقائياً دون أنْ تدخل هذه القراءة إلى برنامجه الذهني، ومواقفه من النَّصّ -رفضاً أو موافقةً- مواقف غرائزية لا عقل فيها، فهي ردَّات أفعال، وسوانح خواطر، وليست ممّا يقتضيه العقل والفكر! فمن الذي يقابل القارئ الغرائزي؟! إنه القارئ الواعي المريد، الذي يستقبل النص استقبالاً مقصوداً، عقله معه، وذهنه حاضر. يعرف لماذا يقرأ، ويعرف ماذا يقرأ، ويعرف كيف يقرأ. القراءة بالنسبة له نورٌ يمشي به يضيء له الطريق، ويحس معها بالدهشة التي يشعر بها من يطلع على المعرفة.

- إشكالية التَّحيز: من أخطر ما يُعطِّل قيمة القراءة، ويُفقدها غايتها، أن يدخل القارئ على النص وهو مُتحيِّز إلى عاطفة، أو فكرة مسبقة! فإذا فعل ذلك تشوَّش معيار التقويم، وضلَّ مقياس الموضوعية! ولا يخفى على المراقب أن قراءتنا -على الأغلب- متحيزة عاطفياً، وفكرياً، فنحن نحب أن نقرأ ما يدغدغ عواطفنا وإن خالف الحقيقة، ونأخذ موقفاً مسبقاً ممَّن نعرف أنه يخالفنا، أو يطرح ما يزعجنا! وهذا يعني أن معيارنا في القراءة أهواؤنا، ورغباتنا، ومقرراتنا المسبقة، فمن وافقها فهو الذي لم تلد النساء مثله! ومن الأمثلة على ذلك، قضية السلبية والإيجابية، فما هو مقياس السلبية والإيجابية عندنا؟ إنه ما نحب وما لا نحب! فإن قرأنا ما

نتبنى، ونحب فالكاتب إيجابي، وإلا فهو سلبي مُثبَّطا ومثل ذلك التفاؤل والتشاؤم، مقياسهما لدينا مطاط جداً، حمَّال وجوه، والحكم في النهاية أهواؤنا ورغباتنا! إنَّ القراءة المقابلة لهذه الآفة هي القراءة المحايدة، وأستدركُ لأقول قدر الإمكان! لأنني أدرك أن الحياد المطلق غير مقدور عليها، لكن نُسدِّد ونقارب إلى الدرجة التي تكون فيها القراءة أقربَ ما تكون إلى الحياد، وأبعدَ ما يكون عن المقررات السابقة. إنَّ القراءة المحايدة قراءة تحب الحقيقة ولو أزعجتها، وتقبل الحق ولو كان من أبغض الناس، بل ولو كان من أفسق الناس، كما كان يقول أحد الكبار:

أعمل بعلمي ولا يمنعك تقصيري ينفعك علمي ولا يضررك تقصيري

والقراءة المحايدة موضوعية، تحتكم إلى المعلومة التي تنقل الواقع كما هو، وتعرض الحقيقة كما ينبغي لا كما تحب.

- **وأخيراً القراءة المتسرعة:** وأعني بها القراءة التي تأخذ موقفاً بادي الرأي، تخطف الكلمة أو الجملة خطفاً، ثم تبني عليه قصراً من وجهات النظر المتعجلة. ومن قرأ هذه القراءة فحتماً سينقطع التواصل والتفاهم بينه وبين الكاتب، وسيحمل كلَّ ما يقرأ حملاً لا إنصاف فيه، وسيُوظِّف كلَّ ما يعرفه من آليات التعامل مع النصوص ليدعم وجهة نظره المتسرعة، فيشرع باصطياد الثغرات -أو ما يظن أنها ثغرات!!- ليُرديَ الكاتب أرضاً، ويحمل المحتمل على الضريح، وينادي على رؤوس الأشهاد ملوِّحاً

بالمحتمل: أنّ هذا هو كاتبكم العظيم فاحذروه! ويقابل هذه القراءة، القراءة المتأنية المُنصفة، التي لا تستعجل النتائج، وتعطي الكاتب الفرصة التي يستحقها للفهم عنه، وتحمل محتمله على صريحه، وتستخدم آليات فهم النص لخدمة الوصول إلى الحقيقة.

- وأخيراً، وتلخيصاً: إنّ القراءة المطلوبة هي القراءة المبنية على الإخلاص والإنصاف والفهم والوعي والتدبر، القراءة التي تربط وتستنتج. إن بداية النهضة هي قراءة صحيحة، ولا يمكن أن ينجح شعار التوحيد أولاً دون هذه القراءة. فلا عجب أن كانت هذه الكلمة أول كلمة في آخر رسالة. هذه الكلمة التي لا أجد في وصف عظمتها وخطورتها أبلغ مما قاله سيد رحمه الله فيها: «الكلمة التي أدهشت رسول الله ﷺ، وأثارت معه وعليه العالم». فلله درُّ سيد رحمة الله عليه. وكيف لا وهي التي وضعها القرآن بداية للذين حمّلهم مسؤولية تغيير العالم، وقيادة البشرية. وقد سُئل فولتير مرةً عمّن سيقود العالم فأجاب: «الذين يعرفون كيف يقرؤون». وها هي المطابع في العالم الإسلامي تدفع في كلّ عام آلافاً من الكتب، وها هي الشواهد تدل على أن الذي يقود العالم هم الذين يحسنون القراءة، ونحن لا زلنا قابعين على حدود القراءة الأمية، العصافيرية، إلخ القائمة القاتمة! إننا نمتلك وسيلة الحضارة، ومنهج التقدم؛ القرآن، ومع ذلك فإن حالة الوهن التي نعيشها تحرمنا من الإفادة من هذا الكتاب الحكيم. إن حوارنا حوار طرشان، والتواصل فيما بيننا معدوم، ولقد يصدق

علينا ما قاله حسن البنا رحمه الله: «إذا شرحت فكرتك لأحدهم عشرين مرة، ثم ظننت أنه قد فهمك فأنت متفائل!» وأختم بهذا الحديث الرائع الذي يصف عجزنا عن القراءة المنتجة، وكيف أن القراءة المطلوبة ليست هي مجرد قراءة الأحرف، فقد روى زياد بن لَبيد ﷺ فقال: «ذكرَ النبيُّ ﷺ شيئاً، فقال «وذاك عند ذهابِ العلم»، قُلنا يا رسولَ الله: وكيف يذهبُ العلمُ؟ ونحنُ قرأنا القرآنَ ونُقرئه أبناءَنا، وأبناؤنا يُقرؤون أبناءهم، فقال: «ثكِلتكَ أمُّكَ يا ابنَ لبيد، إنْ كنتُ لأراكَ من أفقهِ رجلٍ بالمدينة، أوَ ليس هذه اليهودُ والنصارى يقرءونَ التوراةَ والإنجيل، ولا ينتفعونَ ممَّا فيهما بشيءٍ؟!» رواه ابن ماجة وابن حيان بسند صحيح.

Scanned with CamScanner

«معالم على طريق النقد»

١- تقدم أحدهم لامتحان عن علم الحيوان، وكان يعرف كل شيء عن الحيَّة (الثعبان)، ولا يعرف شيئاً عن الحيوانات الأخرى، ولسوء حظه فقد جاء السؤال عن الفيل.. فكيف يجيب؟ على كل حال فكر وقدَّر وقال:

٢- الفيل حيوان كبير، له خرطوم طويل يشبه الحيَّة... والحيَّة هي... وأكمل عن الحيَّة ونسي الفيل!!

.... بعض من يمارس النقد كصاحب الحيَّة، لا يعرف إلا شيئاً واحداً ويريد أن يقيس كل الوجود عليه!!

٢- «إذا اتسعت الرؤية ضاقت العبارة»، هكذا قال أحدهم ذات صفاء، ولك أن تعكس قوله فتقول: (وإذا ضاقت الرؤية اتسعت العبارة). فالمحدود واسع الخطو في تخطيء الناس، وفي الوقت نفسه مخدوع بما يعرف فينادي بأعلى صوته: أنا المقياس، وأنا الميزان، أنا الصواب! فمن لم يكن (أنا) فهو باطل وهو منحرف وهو خطأ.

٣- وهذا ينطبق على المستقبِل للنقد، فمن كان كذلك فأنَّى له أن يستوعب أن قوله الذي لا يعرف غيره محلُّ نظر، فضيِّقُ الصدر والأفق والعلم يظن أن كل ما سوى المحدود الذي يعرفه مخالفة أو بدعة أو خطأ!

أما الكبير الفطِن فيقول: علم الناس ما لم نعلم.

Scanned with CamScanner

٤- الذين تجاوبوا مع القرآن من الجيل الأول أدركوا أنه يبشر بأفق واسع كاتساع السماوات. فصرخ واحدهم: كيف حصل هذا؟ لِمَ أنا هكذا؟ كيف سمحت لهم باستغلالي واستعبادي؟ وصرخت الأنثى: بأي ذنب قُتِلْتُ؟! وصرخ كل الناس: ما هذا الهراء؟! وما هذا الفساد؟! لقد كان نقد القرآن قوياً حاسماً واضحاً فتحول الإنسان إلى كائن جديد يتمتع بإنسانيته، ولا عجب فلقد قضى النقدُ القرآني على التناقض الكامن في نفسه.

٥- النقد حالة من الوعي، وهدفه إحداث تغيير جذري... ولا شك بأن الذين يحملون (وِزرَا) النقد! يعانون في سبيل كشف الواقع والوقائع، وهؤلاء -دائماً- فئة قليلة يمثلون نقطة ضوء تدل على النموذج البديل، ومن الطبيعي أن يضيق الجمهور ذرعاً بهذه القلة التي تمثل بالنسبة لهم عامل إقلاق لراحتهم، وسباتهم الممتع، وشخيرهم الطويل. ولأنها تضطرهم إلى البحث وإعادة التنقيب، والمراجعة لما هو قائم، وهذا ما لا يحبه الإنسان، ويبغض من يدعو إليه! فالإنسان المتخلف يريد أن يبقى كل شيء على ما هو عليه، ويريد أن تبقى أصنامه كما هي لا تمس، وكل من يشير إليهم -مجرد إشارة- فإنهم سيصبون عليه لعناتهم بلا رحمة!

٦- النقد عدوّ التأقلم، عدو الاسترواح لما هو قائم، وخروج من أسر العادة، وحرب على كل من يقول ﴿... إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ ...﴾.

Scanned with CamScanner

٧- النقد أهداف واضحة، وتثوير للقدرات، وتنبيه للحواس. وهو تحرير للتوحيد، والتزام صارم به، وإلا دخلت في خطاب: «إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ»، فلا تعترض إن لم تصل إلى مستواه!

فما علاقة التوحيد بالنقد؟!

إذا أردنا أن تكون لدينا حركة نقدية واعية، فلا بد من امتلاك مرجعية واضحة لهذه الحركة. ومرجعية المسلمين في النقد وفي التغيير هي التوحيد، فهو المقياس الذي يعرف به الصواب من الخطأ، وعلى هذا ينبني النقد.

٨- النقد توازن بين معتقداتك، وبين ممارساتك. لقد حوّل القرآن الإنسان إلى كائن جديد يمارس الانسجام مع ذاته في أرقى صوره:

فالإنسان الطبيعي هو إنسان حقّق الانسجام ما بين داخله وبين خارجه. والذي يسعى لتحقيق هذا الانسجام هو إنسان امتلك القدرة على النقد، وبعد ذلك انطلق إلى فهم مجتمعه وتقويمه أي نقده.

٩- النقد مقاومة لتحييد قدرة المجتمع على التغيير: فهو يواجه المخطئ والظالم فيشعرهما بالضيق والأسى والحسرة. ولكن لا تظن أن نجاح النقد مرتبط بتجاوب المخطئ والظالم للنقد: غاية النقد أن تبقى أسماء الأشياء كما هي دون تزوير وتشويه. «كَيْفَ بِكُمْ إِذَا رَأَيْتُمُ الـمَعْرُوفَ مُنْكَراً، وَالْمُنْكَرَ مَعْرُوفاً..» عندها تنتكس الموازين، وعندها حتى النقد يفقد قيمته!

Scanned with CamScanner

١٠- ممارسة النقد بداية التوجه للتغيير، هكذا الأصل، فهو ليس التغيير إذن: المشكلة أن كثيراً من الناس يرتاح عند ممارسة النقد ظناً منه أنه قد بذل الوسع. وقد تفطن القاهرون، أصحاب المصلحة في بقاء الأحوال كما هي، فقال قائلهم: ليقل من شاء ما شاء، المهم في النهاية أن أفعل ما أشاء!

• • •

١١- في الوقت الذي نعتقد فيه أننا تجاوزنا مسألة مشروعية النقد، وضرورته، يطلع علينا من لا زال يعيش خارج الخارطة، وعلى طريقة: تباً لك ألهذا جمعتنا؟!! يقول: تباً لكم معاشر الداعين إلى ضروزة النقد، تريدون أن تفسدوا علينا استقرارنا، وأن تخرجونا من النعيم المقيم الذي تفيؤ ظلاله، فيهدمون عليك البنيان -الذي تحاول بناءه- من قواعده! ولكن لن نسمح لهم بجرّنا إلى ساحات انتهينا منها، ولن نمنحهم فرصة التلذذ بنقض غزلنا، والعودة إلى نقطة الصفر، بسبب غبائهم، أو جهلهم، أو منفعتهم.

١٢- أتدرون من المسكين؟ إنه الذي يظن أن النقد شتائم! وقد أعذر فإن المعنى الذي استقر في عقولنا منذ قرون للنقد هو أنه كذلك! فلا لوم علينا من إرث وصّلنا عبر أجيال، هكذا تربينا، حتى أصبحت جيناتنا ترفض النقد لأنه شتيمة. لكننا لا نعذر أنفسنا من وضع أصابعنا في آذاننا

Scanned with CamScanner

نرفض الاستماع لـمن يفسر لنا الأمور.

١٣- هدف النَقد: أن لا يمر مخطئ دون الإحساس بالذنب! ليس رغبة في إحراج أحد... ولكنَّ تكررَ الخطأ دون تنبيه سيُحوِّل الخطأ إلى صواب... «كَيْفَ بِكُمْ إِذَا رَأَيْتُمُ الـمَعْرُوفَ مُنْكَراً، وَالـمُنْكَرَ مَعْرُوفاً!» فلسفة ضرورة النقد إعلان عن بقاء من يُمثل الصواب. والمجتمعات لا تسقط عندما تخطأ، ولكن عندما يُمرِّر الخطأ ويُزين ويُلمع.

١٤- ولذلك فإنَّ النقد تحدُّثٌ بصدق، وتواصلٌ مع الذات والخلق والحياة بصدق...لأنه شفقة ورحمة وإن كان مُرًّا.

١٥- التعليم الصحيح يبني النقد بأبعاده النظيفة، والتي لا تعني الشتيمة. وعندما لا يوصل التعليم إلى ممارسة النقد، فهذا يعني أن المجتمع الذي يمارس هذا النوع من التعليم مجتمعٌ متخلف. ولقد بدأ المجتمع المسلم بالتراجع لـمّا توقف النقد، وحلّت محل ثقافة النقد والمراجعة ثقافة قاتلة متمظهرة في مجموعة من الأمثال تربَّت عليها الأمة ولا تزال! فكلنا وصّاه الكبار أنَّ: اليد التي لا تقدر عليها بوسها (قبّلها) وادع عليها! وأنَّ أفضل طريقة للمشي هي أن تـمشي قرب الحيط (الحائط)! وقد أكّدوا علينا أن اليد لا تقدر على المخرز! ولم ينسوا أن يذكرونا أن لا فائدة من أي محاولة للتغيير لأنَّ: مالطة قد خربت! وهكذا.. والجميل أن هذه الأمثال منتشرة في العالم العربي! ممكن باختلاف في اسم أو وصف لكن الـمُؤدّى واحد، والهدف مشترك: دعونا كما نحن ستر الله عليكم.

Scanned with CamScanner

١٦- النقد ليس عملاً فردياً... إنه جهد جماعي.. وهو سِمَة على نمط حياة... وعندما لا يتم التفاعل بين أركان العملية النقدية سيتحول النقد إلى صراخ وسباب ورفض؛ مجرد رفض... سيتحول إلى فعل بلا هدف، بلا عنوان، مجرد تنفيس عن المشاعر.. وسيكون موقف المقابل الدفاع لمجرد الدفاع عن الأصنام الموجودة! الأصنام لا حدود لها: فقد تكون مشاعر وأحاسيس، وقد تكون أفكاراً، وقد تكون أوضاعاً، وقد تكون النفس التي في داخلك.. وهكذا فلا يذهبن خيالُك إلى هُبَل السياسة وعُزَّى السياسيين وحسب.

١٧- رفض النقد يعني: الخضوع للتصورات الكاذبة، والتاريخ المزيف، والواقع المزور، إنه دفاع الاستناد إلى الحائط ذلك الدفاع المستميت... لا منطق، لا استماع، لا حوار.. فقط اعتماد على الحائط!

١٨- النقد لا بدَّ أن يكون في كثير من الأحيان قاسياً.. مع التنبيه على أن القسوة هنا نسبية.. هل علينا أن نلفت النظر إلى أنَّ كل من تُوجه إليه عملية النقد يراه قاسياً شديداً ظالماً؟ لا تطلب أو تتوقع أن يكون النقد حواراً أو هدهدةً وترقيعاً.

• • •

١٩- النقد هو السبيل إلى التحرر؛ فكيف يتحرر العبيد إذا لم ينقدوا واقعهم؟!

Scanned with CamScanner

٢٠- النقد تأكيد على أنك لست معزولاً عمّا وعمّن حولك؛ فهو يرفعك من حالة القناعة بالراحة، ويخرجك من الانكباب حول نفسك والرضا بما تؤديه على المستوى الشخصي، إلى الإحساس بما حولك والمشاركة فيه، لا أن تكون مجرد مُتلقٍّ ومستقبل.

إنه ينقلك نقلة هائلة، من إنسان خامل إلى إنسان فعّال متفاعل.

٢١- النقد لا يكون إلا بالفهم والعلم كي يحقق غايته. يَسبِق النقد عادة تساؤل، وقراءة.

٢٢- النقد يقول: لا يمكن لأي إنسان مهما بلغ أن يقف عند نقطة ثابتة. لذلك فلا بدَّ من استمرار عملية قياسية معه تتابعه وتقيمه؛ تقيسه على معايير المنهج، وتقيمه على مقاييس العقل، والنتيجة:

- مراقبة للذات شديدة، فلا يبقى أحد يشعر بأنه فوق النقد.
- محافظة على المنطق والحقيقة.

... هذا وإلا سيبقى المتلاعبون بالعقول بلا رقيب ولا حسيب.

٢٣- النقد حاسة تنمو بالتعليم والممارسة، لذلك فإن من لا يملكها يثور إن رآها على الآخرين! إنه عملية مستمرة خارج أسوار المدارس والجامعات، أي أنه ليس عملية أكاديمية، بل نمط حياة. فهو يقوم على طرح القضايا المهمة، ويقتضي الملاحظة المستمرة، وينبهك إلى توظيف

Scanned with CamScanner

الحواس، وعندها يصبح التعليم عملية مشتركة.

... والسؤال الآن: هل يمكن أن يحصل التغيير عن طريق التعليم الذي يجعل همّ الإنسان الآخرة دون السعي لعمارة الدنيا؟!

وهل يمكن للتعليم الذي يصف ولا يحلل، يقنع ولا يرفض أن تنهض به الأمة؟!

٢٤- النقد صراع بين منهجين ورؤيتين للحياة؛ منهج يُموّه الحقائق، ويحجب المعلومات، ومنهج يقدم الحقيقة كما هي، ويعرض المعلومة بسهولة. منهج يفضل التدجين، ومنهج يريد أن يمارس الإنسان إنسانيته، ليحقق حريته.

٢٥- قامت الحضارة الإسلامية على النقد: لأنها بدأت باقرأ، وباقرأ أثيرت التساؤلات التي صدمت المتلقي، وعرّت أمامه الواقع. هناك نصان؛ نصٌّ يصف الواقع ويؤكده كما هو بلا نقد، ويزرع في الأذهان استحالة تغييره لأنه مقدّس أو شيء من هذا القبيل، ونصٌّ يطرح التساؤلات، ويُعرّي الواقع ليكشفه أمام المتلقي.

٢٦- النقد يعني أنك بدأت تشعر بالتناقض والقهر والخطأ، لتسعى بعد ذلك لتعديل الواقع وتعديل علاقتك به.

Scanned with CamScanner

النقد إحساس بالإنسانية لأنك تسعى من خلاله لإزالة التناقض الذي تعيش فيه.

لماذا لا بد للإنسان من مزاولة النقد؟ حتى يغير حالة فاسدة، أو ظرفاً خاطئاً.

ليتجمد ثقافة الشرك، وثقافة التسلط، وثقافة التعصب... هذه التي قتلت روح الحياة، ومزقت معنى حياتنا، ودمرت إنسانيتنا.

• • •

Scanned with CamScanner

«نقد ونكد»

في كثير من الأحيان تلتقط الحواس مواقف تستدعي النقد، وتؤدي إلى النكد، وتستثير الضحك، وتدفع إلى البكاء. وقد لا يحتمل هذه المواقف فصل واحد، أو قد لا يرغب ملتقطها بذلك إذ يرى أنَّ في خروجها على شكل ومضات أو خفقات أجدى وأبلغ. ومع الأيام يجتمع لديه منها الكثير، فيحار ماذا يصنع بها، ثم يقرّ قراره على تسريبها للقارئ على أيِّ شكل خرجت، كي يشاركه بنقدها ونكدها، وضحكها وبكائها (على طريقة «المضحك المبكي» الجريدة السورية التي أوقفها الاستبداد في ستينيات القرن الماضي)، وليحملوا معه (تنكيتها وتبكيتها على طريقة عبد الله النديم رحمه الله)، ولينظروا إلى الأمور (على طريقة أبو نظارة يعقوب صنوع). وإن كان لا بد من عنوان فليكن: (نقد ونكد) يتكرّر كلما تجمع ما يقتضي النقد والنكد.

• في مطار الدمام، قال لي صديقي الذي حطَّ فيه: ضخم ولا داعي لذلك، فروّاده قلّة، باذخ ولا تدري لماذا تضيع الأموال على تلك المظاهر، لكن ليست هنا المشكلة، قال: دخلنا القاعة ولم تكن الأعداد كثيرة، فإذا بشبابيك المرور تخلوا من الموظفين، لا أحد! أين هم؟ لا تدري! فبقينا ننتظر أربع ساعات! كان خلالها يمر أحد الضباط فيسأل: أين الموظفون؟ ويذهب للبحث عنهم ولا يعود! إرهاق، قلق، لأنك تتعامل مع المجهول،

Scanned with CamScanner

وتهر لأنك لا تجرؤ على الاعتراض! صديقي لحسن الحظ أو لسوء الحظ مرَّ بمطارات كثيرة، ورأى كيف تتم معالجة أزمات القادمين الكُثر، من خلال موظفين عمليّين، قائمين على عملهم بكل جديّة وفاعلية. لم يجد هذا الاستهتار واللاأبالية، والاحتقار للإنسان.

أين كان الموظف؟! وأين المسؤول عنه؟! قد يكونون مشغولين بالمسامرة، وقد يكونون مجتمعين على مائدة إفطار، وقد يكونون يصلون صلاة الضحى التي لن تقبل منهم!

• النرويج: بلد بارد، جقيعي، صغير، متقدم، شعبه -مع أنهم كفرة- يقدرون إنسانهم ومن يزورهم! وهو بلد نفطي. فماذا تفعل النرويج بدخلها من النفط؟

تحتفظ بالنسبة الأكبر منه للمستقبل، وتنفق النسبة الأقل على الضروري! يعني على قاعدة: ﴿.. فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ تحسباً لسنين شداد ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾. قبل مدّة وجيزة نشرت «النيويورك تايمز» أنَّ هؤلاء (البخلاء عديمي النخوة والإنفاق) قرروا وبصعوبة بناء (دارٍ للأوبرا) وقالوا: لا بأس لنخصص ما يكفي (لاحظ: ما يكفي!!) لبناء هذه الدار!!

• تبرع الرئيس الفلاني، أو الملك العلاني، أو سمو الأمير، بمليون دولار لبناء جناح في مستشفى ما! خبر يتكرر في العالم الغربي كثيراً، مرة

Scanned with CamScanner

لمشفى، وأخرى لدار أيتام، وثالثة لمضمار سباق الهجن، ورابعة وخامسة...

فيصفق القطيع مسروراً، وينشد الحمقى أناشيد الولاء! وينسى المغفلون، ولا يسأل الأغبياء: ولكن من أين لطويل العمر كل هذه المبالغ؟

• بعد استلام الرئيس الأمريكي مهامه، تسلّم ثروته للجنة معينة من الحكومة، تستثمر هذه اللجنة أموال الرئيس دون علمه أين، ودون علم أحد أن هذه أموال الرئيس.

وعند استلام الرئيس الفرنسي مهامه الدستورية (الدستورية هذه من عباراتنا التي لا معنى لها في الواقع، فالحاكم عندنا لا علاقة له بالدستور)، المهم: عندما يستلم الرئيس الفرنسي تجرد ثروته، وعندما تنتهي مدته (مدته هذه ليست من مصطلحاتنا لأن الحاكم عندنا لا توجد له مدة انتهاء صلاحية، فهو لا يحل عنّا إلا بالموت أو بالانقلاب)، تجرد ثروته مرة ثانية، ويحاسب على الزيادة.

• أولاد الرؤساء العرب -دعك من الملوك والأمراء والشيوخ- لهم مطلق الصلاحيات، فهم يحكمون، ويملكون بلا رادع من قانون أو خلق: فأنت تسمع عن مؤسسة القذافي التي يديرها ابن القذافي أنها قدمت عرضاً بثلاثة مليارات دولار إلى ذوي ضحايا «لوكربي»! وأبناء الرؤساء في بلادنا ملأ السمع والبصر يصولون ويجولون، ويعرفهم القاصي والداني.

• عندما ورث (بشار) ملك أبيه في سوريا، قال أحد المنظرين (من

القطيع) بكل وقاحة: لماذا تنقمون علينا انتخاب!! بشار ألم ينتخب الشعب الأمريكي جورج بوش الابن بعد أبيه؟! عجبي.

• في أمريكا، في الغرب كلّه، الرئيس ضعيف في الداخل، قوي في الخارج.

الحاكم العربي قوي في الداخل، ضعيف في الخارج.

• عندما أراد (ملك) السويد تركيب صحن لاقط في قصره، فكّر في وضع الصحن على سطح القصر. اعترضت الأمة (السويدية بالطبع) وقالوا له: إن القصر من التراث السويدي، فهو ملك الشعب، ووضع اللاقط على السطح سيشوه منظر القصر. فقال لهم بكل لطف: فماذا أفعل؟ قالوا له: (دبّر حالك، بالسويدي طبعاً) ضعه في الحديقة.

لم يختف أحد، لم يُسجن أحد، لم يقل صحفي قذر رخيص -مثلاً-: «أنتم ضد البلد، أيها القابضون من الخارج» لم يقل أحد هذا، ولا غيره، وفعل الملك ما أراده الشعب.

• • •

Scanned with CamScanner

«إيقاظ» الصحوة الإسلامية!!

لنتقدم قليلاً:

الصحوةُ في سبيلها إلى النوم!... فلا بُدَّ -إذن- من يَقَظة قوية!

بدايةٌ مزعجةٌ لقضيةٍ غير مفكر فيها عند كثير من الناس.. لكنَّه «الإيقاظ» فعلٌ مُزعج، وصاحبُه غيرُ محبوب، خاصّةً عند من يظنُّ نفسَه في حالة صَحْوٍ!

يحتاج بحثُ القضية لكثير من الصراحة والجرأة، فهل نمتلكُ القدرةَ على وضع أنفسنا وجهودنا تحت مجهر النقد؟! إنَّها أزمة، وأزمةٌ ضخمة، ضخامةَ موضوعها، وخطيرةٌ خطورةَ أهدافها! ومن أجل تجاوزها، والتعامل معها بطريقة سليمة، نحتاج لِمَا هو أكثر من تغيير الأسماء، واجترار الأشكال، وتقليد السابق. إنَّ تحقيق اليقظة لا يُمكن أن يتمّ بالتصورات والإمكانات المعمول بها الآن. إنَّ ممارسة النقد دليلٌ على الوعي، والوعيُ يُؤهلنا للتعامل مع الأفكار بشكل مُنفصل عن الأشخاص، وتقويمِ النتائج على أرض الواقع بعيداً عن تُهمة التحيُّز مع أو ضد الذين حقّقوا هذه النتائج.

Scanned with CamScanner

والتحدي الذي يُواجه أيَّ محاولة للإيقاظ يَكمُن في الاستعداد لإعادة طرح الأسئلة القديمة، والالتفات للأسئلة الجديدة التي تُفرزها مُعطيات الواقع الذي نعيش. ولا شكَّ أنَّ طرح الأسئلة سيُشعر المعنيين بالمأزق، وسيدفعهم إلى كدِّ الذهن في البحث عن سُبُل الخروج منه، وسيوقفهم أمام مسؤوليتهم الشخصية.

إنَّ كلَّ من يتحدث، أو يكتب إذا استطاع -على الأقل- إثارةَ التساؤلات عند الدعاة والقائمين على العمل الإسلامي، بل وكلِّ مهتم، عندها ستتقدم خطوةً إلى الأمام، وسنُدرك بأنّنا حقَّقنا تقدُّماً ملموساً مع الأيام، فما الظنُّ إذا استطاعت الجهودُ المُلِحَّةُ، الضاربةُ على جدار هذا الموضوع أنْ تُساهم في اليقظة، وتحريك الماء الراكد؟!

اليقظةُ شيءٌ آخر لا يقتصر على فتح العينين، وفركهما، إنها صحوةٌ قوية تقتضي:

مراجعة...

وندماً على ما فات...

وفكرة واضحة...

وبصيرة نافذة...

وعزماً على التصحيح...

Scanned with CamScanner

ثمَّ إرادة تُحوِّل كلَّ ذلك إلى عمل مستمر، ومحاسبة دائمة. وكم يعجبني تعريف ابن القيم رحمه الله لليقظة إذ يقول: «... هي انزعاجُ القلب، لروعة الانتباه، من رَقْدة الغافلين»[1]. إنها انتفاضةٌ مزعجةٌ تُؤرق القلب، وتُزعجه ندماً على ما فات أيام الغفلة والنوم، ثمَّ هي إحساس بروعة الوعي، وحلاوة الفهم، وعظمة الصحو. وهل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟!

إنَّ الحُداة يَطرقون آذاننا بنشيدهم، ألا استيقظوا، ولا تكتفُوا بصحوة تقف بكم عند فتح العيون، والتثاؤب من بقايا كسل النوم! والترتيل يُردِّد: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟...﴾ [سبأ: ٤٦]. يقول لنا القرآن إنَّ اليقظة الفاعلة هي اليقظة المستمرة التي لا تقف عند حدٍّ، ولا تعتمد على انتباهةٍ ضعيفةٍ مغرورة، إنَّها تنميةٌ دائمة دائبة لا تفتر عن فعل اليقظة، والمراجعة، والمحاسبة، وإلا فالبديل رهيب، وخطط المراقبين لن ترحمنا، وستنتهي الصحوة إلى ذكرى، وإلى مجرد مرحلة تاريخية، ككثير من تجارب النهوض التي مرت بالأمّة، أو التي مرت بها الأمّة!

إنَّ العلمانيين يراهنون منذ زمن على أنَّ الصحوة الإسلامية ليست إلا مُجرد مرحلة أفرزتها عوامل اقتصادية، واجتماعية، وسياسية! ويراهنون على «أنَّ الصحوة الإسلامية في طَوْر التراجع، وأنَّ العمل الإسلامي قدَّم ما

(١) «تهذيب مدارج السالكين» (١/ ١٥٣).

لديه وهو يُعاني من الضمور). ولقد قُدِّمت دراسات، ورُفعت توصيات للتعامل مع هذه العوامل للتأثير على الصحوة وجوداً ونموًا. والواقع أنَّ القوم قطعوا أشواطاً في هذا المجال.

فما هي ردة فعلنا تجاه هذا الذي يحدث؟

نستطيع أن نقول -وقد قيل-: إنَّهم حاقدون مُغرضون.. إلخ.... وبهذا نريح أنفسنا من مؤونة البحث، والتدقيق، ومأزق مواجهة الذات! ولا عجب، فهذا هو المشجب الذي اعتدنا أنْ نُعلِّق عليه أزماتنا! وهنا تكمُن المشكلة، فنحن نتام، ونستغرق في النوم حتى يأتي من يُهاجمنا، أو ينتقدنا، فنقوم عندها لندافع، ونُبرِّر، ونهاجم. وهذا الأسلوب ليس خاصاً بالإسلاميين، بل إنَّه ماركة مسجلة باسم شعوب المنطقة التي ننتسب إليها. إنه أسلوب إبليسي. إذ إن آدم عليه السلام عصى، وإبليس عصى، لكنَّ آدم عليه السلام عندما نُبِّه تَنبَّه، ولم يجد اللهُ له عزماً. أما إبليس فقد أصرَّ واستكبر عندما عُرضت عليه معصيته، وذهب يُدافع عن نفسه ويسوق المُسوغات المزيلة! وأعود إلى المشكلة: لماذا نرفض مراجعة أنفسنا، ونبقى نحيا على الأماني حتى إذا جاء من يصدمنا بكشف واقعنا لنا -بصرف النظر عن نيته- إمَّا أن ننتكس! وإمَّا أن نصرَّ ونَخبط يمنةً ويسرةً في تبريراتنا!

إنَّ موقف الاعتراف، ومراجعة الذات قمةُ الإنسانية.

Scanned with CamScanner

لقد آن الأوان للعاملين في الساحة الإسلامية لكي يُعيدوا النَّظر في واقع العمل الإسلامي، ولا ينتظروا الآخرين ليقوموا بهذا الدور عنهم، مُكتفين بردَّات الفعل غير الناضجة. وحينها ستصدُق فينا ظُنون العلمانيين، والأبحاثِ العابرة للبحار، من أنَّنا مُجرد مرحلةٍ ألَمَّت بالمنطقة، كسحابة صيف، ثم تُوشك أنْ تَقشَّعا!

إنَّ الهدف من هذا الإيقاظ إثارةُ صفة الآدمية داخلنا، فإنْ حصل صحَّ لنا شرفُ الانتساب لآدم عليه السلام. وإلا.... فما ثمَّة إلا إبليس... ولنا الخيار!

• • •

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

«إشكالية النموذج»

﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ؟﴾

بكلِّ حرارةٍ وانفعال، قال الشيخُ الداعيةُ المشهور، صاحبُ الجمهور العريض: «... **وكان الإمامُ أحمدُ رحمه الله يقومُ في الليلة مائتي ركعة»!!** استوقفتني هذه العبارةُ وقلتُ في نفسي: قطعاً يريدُ الشيخُ رفعَ معنوياتِ المشاهدين، وشحذَ إيمانهم، من خلال سَوْق مثل هذا السلوك عن الإمام أحمد رحمه الله. فنيةُ الشيخ حسنةٌ بإذن الله تعالى، لا شكَّ عندي في ذلك، بل لا علاقةَ لي بنيته، فكم من مُريدٍ للخير لا يُصيبه! وعلى كلِّ حالٍ فالشيخُ لا يُغرِّدُ خارجَ السِّرب، بل هو نَغَمةٌ من لحنٍ ضاربٍ في الزمن، مُمتدٍ إلى يوم الناس هذا. ومن يقرأ في كتب التراجم، وكتب الرقاق والمواعظ القديمة، ويستمع لكثيرٍ من المحاضرات، والدروس الحديثة، يجد عجباً في خطاب الدعاة والمشايخ والكتّاب! وفي هذا الفصل لا أريد أن أشير إلى كل ذاك العجب، بل سأكتفي «بإشكالية النموذج» الذي يَرِد في كلامهم ومواعظهم ومحاضراتهم، فهم رحمهم الله جميعاً -الغائب منهم والحاضر- من باب حبّهم لمن سلف من العلماء والصالحين أولاً، ورغبةً في حَفْز الهمم للطاعة والخشوع ثانياً يسوقون كلَّ ما يقع تحت أيديهم دون تمييز بين الثابت وغيره! أو بين ما تحتمله الطاقةُ البشرية وما لا تحتمله! أو بين ما يقبله المنطق وما لا يقبله!...

فأبو حنيفة رحمه الله صلّى الفجرَ بوُضوء العشاء أربعين سنة! ويُروى مثله عن غيره كذلك! فهل يُعقل أنَّ أبا حنيفة أو غيرَه استمرّ على هذا طوال هذه المدة، أو حتى أغلبها؟! تُرى، ألم تخذله بطنُه ليلةً ما؟!

وأحمدُ وكثيرٌ مثلُه كانوا يقومون الليل بمائتي ركعة!! هذا إضافةً لانكبابهم على العلم، وتدريسهم طلبةَ العلم، وغير ذلك من الواجبات! وقد حَسبتُها فلم ينفعْهم الحساب، فَضممْتُها إلى الغُول والعنقاء والخِلّ الوفيّ! وقد يتعدّى النقلُ هذه الأمورَ فيقول لك المالكيةُ -مثلاً- إنَّ إمامَنا بقي في بطن أمّه ثلاثَ سنوات!!! وكأنّه يُريد أنْ تفهم أنَّ مالكاً رحمه الله نزلَ من بطن أمّه ناضجاً عالماً، خارقاً لعادة البشر حتى قبل أنْ يُولد!! وغير هذا وذاك كثير من اللامعقول! والسؤال الذي يفرِضُ نفسه: هل يؤدي هذا الخطابُ هدفَه في التنشيط والتحفيز وبعث الهمم فعلاً؟! أم يفعل في النفس عكس ما أُريد منه؟! ألا يُصاب المستمعُ بالإحباط عندما تُعرض عليه هذه النماذجُ التي لم تكن ولا يمكن تقليدها؟! والحقيقة أنَّ الخطاب يأخذُ شكلَ الأزمةِ عندما يُعرَضُ النموذج لا على أنّه حالةٌ أو عدةُ حالاتٍ فريدة، لكنّه يُعرَضُ على أنّه ظاهرةٌ عامةٌ! فيقول لك: كان الصحابةُ، كان السلف.... فتتخيلُ أنَّ الحديث عن قوم ليسوا كالبشر، وأنّهم جيلٌ لا يُمكن أن يتكرر، وأنَّ هذا الدين إنّما جاء لظرفٍ استثنائي زمناً، ومكاناً، وشُخوصاً، وأنّنا في الظرف الحاليّ «بشرٌ شيطانيٌّ» شُكراً لنا إنْ صلّينا الخَمْسَ وصُمنا الشهر!

Scanned with CamScanner

لقد لبثتُ حيناً من الدهر، نتيجةً لمثل هذا الخطاب، وأنا أعتقدُ أنَّ الصحابة في المدينة المنورة صلاةُ ربي وسلامُه على من ضمَّتهُ تُربتُها، لا عمل لهم إلا التحلّق حول رسول الله ﷺ يُحدِّثهم ويستمعون، ثم يدعو داعي الجهاد أنْ هيّا إلى غزوة كذا فيَهبُّون مُلبِّين، ثمَّ يعودون غانمين سالمين، فيوزع عليهم رسولُ الله ﷺ الغنائم، فيذهبون إلى بيوتهم فيقومون الليل، ثمَّ يأتون إلى الفجر، وهكذا تمضي بهم الحياة! لاحظ أنَّ التعبير دائماً بصيغة الجمع!!

ويتخيَّلُ المسلم، نتيجةً لهذا الخطاب، أنَّ مجتمع المدينة كان مجتمعاً جاداً، مُقطِّباً، طحنَ خوفُ النارِ قلوبَ أفرادِه، فلا يضحكون ولا يمزحون! وإذا تكلم الواحدُ منهم فإنَّه يتكلم بِمسكنةٍ وانكسار، تكاد العَبْرَةُ تخنق عِبارَتَه! والمجتمعُ المدنيُّ في نظر هذا الخطاب لا مشاكل فيه، ولا معاصيَ، ولا خصومات!

إنَّهم لا يتحدثون عن بشر، هكذا تظهر الصورة، وهكذا يستقبلها المستمع، بل عن ملائكة فهيهات هيهات أنْ نكون مثلهم! ومن يشتغل في الدعوة إلى الله، ويعاني في نصح الناس يدرك ما فعل هذا الخطابُ في المسلمين، فلم نعد نعجبُ إذا نَصحنا أحدَهم مُستدين إلى سلوك الصحابة رضي الله عنهم أنْ نسمع منه: أتُشبهنا بهم؟! إنَّهم الصحابة!! ويُكمل: لقد اختلفت الدنيا، فهناك العمل، وهناك العلاقات المُعقدة، وهناك، وهناك مِمَّا لم يكن في زمانهم!!

Scanned with CamScanner

أمّا عن: كان السلف! فحدّث ولا حرج، من التعميم، والمثالية غير الواقعية، والانتقائية التي تُكبِّر نقطةً بيضاء لتملأ بها المشهد! إنَّ هذا الخطابَ يختزلُ تاريخاً كاملاً، وحياةً بشريةً مُتنوعةً في: كان السلف الصالح، كلُّ ذلك من خلال مثال -سنفترضُ صحته- واحد! واستمع معي لتعليقٍ على قصة المأمون مع خادِمه، وكيف أنّه سامحهُ، وأعتقَهُ، وأحسنَ إليه بعد أنْ أخطأ الخادمُ في عملٍ ما. يقول المُعلّق: «هذا هو تاريخُنا وهذه هي مآثِرُنا، وهذه هي أخلاقُ سلفِنا، فلتسمع الدنيا...» لكنّه لم يقل لنا أنَّ المأمونَ نفسَه قتل أخاه الأمين من أجلِ الحكمِ، لم يقل لنا هذه القصة، وتركنا نتقلبُ على فراشِ الرضا ليفاجئنا مُستشرِقٌ أو عَلْمانيٌّ من بعدُ بقصته مع أخيه فتغصُّ الكلماتُ في حلوقنا، وتخنقنا الحقيقةُ، فيتكسُ منّا من ينتكس، ويهربُ بعضنا إلى ليتَ ولعلّ...، ولقد رأيتُ من هؤلاء وأولئك الكثير.. ويُثبّتُ اللهُ من يَرْكَنُ إلى التوازن، ويُرجعُ المواعظَ إلى الأُصول.

• • •

ما ينبغي ...

إنَّ الأفكار العظيمة لا تنجح بين الناس إلا إذا تمثلت في عالم الناس من خلال رمز (أو رموز) يتحرك بين الناس مطبقاً هذه الأفكار. ولا بد أن يكون هذا الرمز صالحاً للاقتداء به، فهو وإن كان لا بد أن يكون مثالاً عالياً في القمة من الكمال البشري، إلا أنه ليس خارقاً، ولا خارجاً عن إطار البشرية.

لقد شكلت هذه المعادلة أصلاً من أصول ظاهرة النبوة. فالنبوة وإن كانت ربّانية المصدر، ربّانية المنهج، إلا أنها كانت تؤكّد على أنَّ حركة النبي في الحياة حركةٌ خاضعةٌ لقوانين البشر. إنَّ هذه المعادلة من أهمّ عوامل منطقية ظاهرة النبوة، فالنبيُّ من حيث هو نموذج لابُدَّ أن يستوفي الشرطين اللذين أشرنا إليهما آنفا، وإلا لَمَا صلح أن يكون قدوة، وإذن لانهدم أصل النبوة، ولفقدت مسوّغ وجودها في عالم النّاس! ومساحة النصوص التي عالجت هذه القضية، ووضعتها في نقطة الوسط، وعند حدِّ التوازن كثيرة، خاصة في حوار الأنبياء مع أقوامهم. وقد عالجت هذه النصوص القضية من زاويتين:

الأولى: تأكيد بشرية الرسول أمام من رفضوا أن يكون من يقوم بهذه المهمة العظيمة بشراً! إنهم يستكثرون على بشر أن يحمل أعباء هذه الوظيفة العظيمة:
﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ ﴾ [يونس: ٢].

Scanned with CamScanner

وقد منعتهم هذه الشبهة من الإيمان:

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾[الإسراء: ٩٤]. إنهم يرون، بحسَب تفكيرهم المحدود، أنَّ مصدر الرسالة يقتضي أن يُبلِّغها ويتمثَّلها جنسٌ راقٍ من المخلوقات لا يحملُ ضعفَ البشر. وقد ردَّ اللهُ عليهم: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ.. ﴾ [الأنعام: ٩١]. إنَّ من يبعِدُ أن يكونَ الرسولُ من البشر لم يُعظِّم اللهَ حقَّ عظمته، إذ قدح في حكمته، وزعم أنَّ البشر لا يصلحون لتبليغ رسالته، والله يعلم أنهم الأصلح لتبليغها ليتحقَّق النموذج القدوة، ولِتتمَّ غايةُ بِعثة الرسل. وكلَّما كان الأقوام يُنكرون بشريَّة الرّسل، كان الرّسل يردّون عليهم بتأكيد بشريتهم: ﴿... قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ... ﴾ [إبراهيم: ١٠، ١١].

لقد ردَّ القرآن على طلبهم قائلاً: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٥]. هم يريدون تَعجيز «النموذج القدوة»، ليضربوا بذلك أصل الرسالة، فلو أرسله ملكاً لقالوا: (هو مَلكٌ ولا قدرةَ لنا على الاقتداء به!)، وإذ كان بشراً قالوا: (إنَّه بشرٌ وكيف يُرسِل اللهُ لحمل رسالته وتحقيقها في الأرض من تكدَّر بنقص البشر؟!) والآياتُ كثيرةٌ ولا مجال لسردها جميعاً، لكنَّها كلَّها تؤكِّد على وجوب بشرية الرسول لأنَّها من حكمة الله ﷻ، لتحقيق غاية الرسالة، من خلال «الرمز الإنسان»، الذي يستطيع كلُّ من أراد أن يقلِّده،

Scanned with CamScanner

ويهتدي بهداه.

أما الثانية: فهي تخصُّ من آمن بالرسول، ولم يستكثر أن يكون بشراً من حيثُ المبدأ، كما كان منطقُ خصومِ الرسالة. لكنَّ المشكلة هنا في أنَّ هذا المؤمن قد تختلُّ لديه موازين الاقتداء، مما يُشوِّش لديه «النموذج»، فيحتار كيف يتعامل معه. ولتحصين هؤلاء من الوقوع في هذا الخطأ، جاءت النُّصوص الكثيرة التي تؤكد على بَشريَّة الرسول ﷺ، والتحذير من وضعه فوق مكانةِ البشر، أولاً، وثانياً: التأكيد على أنَّ الأصل في كلِّ ما يصدر عنه ﷺ، وفي كلِّ خِطاب وُجِّه إليه العموم، فهو تشريع لكل المسلمين، ولذلك فإن كل ما صدر عنه ﷺ لا يخرج عن وُسْع الجميع من حيثُ القدرة الأصلية، نعم قد يكون صعباً، لكنَّه ليس مستحيلاً. والأحاديثُ التي تنهى عن إطراء الحبيب ﷺ، وعن كلِّ ما يدور في هذا الإطار عديدة، ولست أرى أنَّ سبب هذه الكثرة، والتشديد في النهي، الحذرُ من الوقوع في الشرك وحسب، مع أهميته وخطورته، ودخوله في النهي من باب الأولية، ولكنني أرى عِلَّة أخرى لا تقل عن ذاك أهمية، وهي المحافظة على النموذج من أن يدخل عليه ما يقدح في صلاحيته للاقتداء. وسأكتفي بمثال واحد يبين المقصود، ويدلل عليه:

ما الذي أغضب رسول الله ﷺ؟:

لعل أغلبَ القُراء يعرف حديثَ النفر الثلاثة الذين تقالُّوا عبادةَ رسول الله ﷺ، بعد أن أُخبروا عنها! وكيف أنَّ كلَّ واحدٍ منهم قرّر بأن

يقوم بما يظنُّه قربةً إلى الله! وكيف أنه ﷺ غضب عندما سمع ما حدث، وجمع الناسَ وأخبرهم الخبر، وصوَّب لهم التصور، وختم قائلاً عليه الصلاة والسلام: «فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»[1].

كنتُ أقفُ كثيراً عند هذا الحديث، وأعجب من ردة فعل النبي ﷺ الغاضبة، ودعوته إلى اجتماع عام، وإلقائه بياناً هاماً، غاضباً، حاسماً! فلماذا هذا الغضب؟! وحتى لا أطيل في إيراد ومناقشة الإجابات فإنني سأكتفي بما أراه السببَ الرئيس في غضبه ﷺ. إنَّ الذي أغضبه ﷺ هو تعديهم على فكرة النموذج، فقد قالوا: «وأينَ نحن من النبي ﷺ، قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر». قد يقرّر أحد الناس ألا يتزوج، وقد يقرّر آخر بأن يكثر من الصوم، وقد يقرّر ثالث أن يقوم كل ليلة، وقد يسمح عنهم ﷺ فيدعوهم إليه وينبههم إلى أنَّ ما قرَّروه مخالف لهديه، وأنهم بهذا يشقون على أنفسهم،... قد يفعل كل هذا، وينهى بحزم، وينتهي الأمر. لكن هنا يوجد تصريح خطير، أعتقد بأنه هو الذي أغضبه ﷺ، لقد قالوا بأنه ﷺ يختلف عن الناس، فهو قد غُفِر له ذنبه، كلمة صحيحة، لكنها تهدم -في رأيي- كل ما بناه صلوات ربي وسلامه عليه، فإذا كان قد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فمعنى هذا عدم صلاحيته ليكون نموذجاً لنا، وهي قضية حرص ﷺ على تأكيدها طوال نبوته، فهل يرضى أن يأتي بعد كل هذا الجهد من ينقضها له! ولذلك لاحِظوا ما قاله ﷺ: «وَاللهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ للهِ وَأَتْقَاكُمْ

---

(١) البخاري: (٥٠٦٣).

Scanned with CamScanner

له...» لقد ردَّهم إلى القاعدة، وهي أنَّ حركته ﷺ داخل إطار البشرية، فسلوكه منبثق من الخشية والتقوى، يعني أنّه في الدائرة وليس بخارج منها!! وقد نبَّه مرةً من قال له: (أليس غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر..) فقال: «أفَلَا أكُونُ عَبْداً شَكُوراً»[1]؟!! يعني أنه إن لم يكن في دائرة الواجب، فهو في دائرة الشكر، وكلاهما مرتبتان لا تخرجان عن صلاحية «النموذج».

إنها قضية خطيرة، وأي خطأ فيها يؤدي إلى انحراف هائل في جمل الدين، والدعوة إليه، والسلوك به.

• • •

(١) البخاري: (٤٨٣٧).

«ما اتبعتك على أنك نبي»

١- يُروى أنَّ أحد العلماء ممَّن له أتباع، اقترفَ ذنباً كبيراً فانفضَّ عنه كثيرٌ من مُريديه، وخرج إلى مجلسه في اليوم التالي فوجد أحد تلاميذه بانتظاره يحمل له كتبه، فتعجب من بقائه وسأله: لماذا لم تتركني كالآخرين؟! فقال له التلميذ بكل ثقة: إنني لم أتبعك على أنك نبيٌّ.

٢- قد تكون هذه «الكلمة القاعدة» بسيطة لدرجة السذاجة، وقد تبدو أنها تحصيل حاصل، وأنه لا حرج ولا صعوبة في التزامها. وهكذا كل القواعد سهلة جميلة عندما تكون مجرد قصائد يتفاخر الناس بها، ويَعِدُون بتطبيقها عندما تقع الواقعة! ولكن عندما ينادي المنادي أن هلموا فقد حان وقت التطبيق، ينكصون على أعقابهم، فتضيع القواعد ما بين تأويلٍ بعيد، أو تعصب أعمى، أو تفلُّتٍ مُفرِّط، أو مثالية مُفْرِطة.

٣- لم أتبعك على أنك نبي! عندما تتبع أحدهم، أو تُعجب بأحد العلماء فإنه يكتسب حصانة بوعي أو بلا وعي منك؛ حصانة تحفظه من الخطأ من وجهة نظرك! أنت لا تقولها بهذه الصراحة، ولكنك تمارسها! تتبعه وكأنه نبي، وتعجب به وكأنه معصوم! ولو سئلت عن هذا الموضوع لشرحت لنا ساعات عن بشرية العلماء والمربين، وأنهم يخطئون ويقصرون الخ...

Scanned with CamScanner

٤- وتظهر نبوة من تتبع ومن تحب عندما يبدأ الرجل يفقد توازنه ويتنقل بين الآراء، ويغير أقواله كما يغير ملابسه، فإن شرّقَ شرّقتَ معه، وإن غرّب غرّبت معه.. وليس هذا فحسب بل إنك تنصب نفسك مدافعاً عن تنقلاته، وتشريقاته وتغريباته، فإن قال: أسرعوا، قلتَ:.. وفاز باللذة الجسورُ، وإن قال: قفوا، قلتَ: لله درك من حكيم! وإن قال: ناموا! قلتَ:.. ولا تستيقظوا! وإن قال: علينا أن نُثمن موقف فلان الذي يسمح للناس بالصلاة يوم الجمعة! قلت: علينا وحوالينا وتحتنا وفوقنا...! والخلاصة أنك تفقد بوصلتك مع هذا الرجل، ولا عجب -وأين العجب؟!- ألم تتبعه على أنه نبي؟!

٥- والمشكلة تكبر وتدق عندما يكون هذا النبي صاحب تاريخ مشرف ومواقف سابقة، فمثل هؤلاء الأنبياء! تكون الفتنة فيهم كبيرة، وسهولة تنصيبهم أنبياء تكون أسهل!

٦- نظرياً أستطيع أن أقول لك: اعلم يا أخي أن الرجال يدورون مع الحق وليس العكس... أستطيع أن أقول هذا وبسهولة، وتستطيع أن تسمعه بسهولة ورحابة صدر، لكن المهم مدى قدرتك على استحضار هذا الكلام في مواجهة من اتبعته على أنه نبي!

٧- لم أتبعك على أنك نبي! لها وجه آخر قبيح، وهو ردة فعلك القوية عندما تطّلعُ على خطأ أو تقصير من هذا الذي اتبعته على أنه نبي!

Scanned with CamScanner

وكم رأينا من نكص على عقبيه عندما رأى من أخ له ذنباً أو خطأً! هذا وهو قرين له في السِّنِّ والدرجة، فكيف إذا كان نبياً؟!

يحدث هذا لأنك تشتبك بهذه العلاقة وقد رفعتَ سقف التوقعات إلى الدرجات العُلى، فإن صدر عنه ما هو من مقتضيات البشرية، سقطت من علٍ، وقلتَ في نفسك: ما كان ينبغي أن أثق أو أتبع... وأقول لك: رفقاً بنفسك، وبالبشر، فأنت لا تتعامل مع أنبياء، ولا مع ملائكة.. وقل لنفسك دائماً: ختمت النبوة بمحمد ﷺ يا نفس، فلا تصاحبي الناس على أنهم أنبياء، وقُل لمن تصاحب وتتبع: لم أصاحبك ولم أتبعك على أنك نبي!

• • •

الواقع الإسلامي...

«بين ضرورة المراجعة وثقافة الصمت»

أمام لوحة «البقرة والحشيش»! وقف الفنّان يشرح لمجموعة من الحضور أبعاد اللّوحة! ومقاصدها!! وبعد أن انتهى ظانًا أنه قد سلب العقول بشرحه اللامعقول!

سأله أحدهم بعفويّة: ولكن أين الحشيش؟!

لقد أكلته البقرة. أجاب الفنان!

فرد السائل: فأين البقرة إذن؟

قال الفنان: داخل الحشيش.

لا شيء على اللوحة، هذا ما نستنتجه من الحوار السابق! أما البقرة والحشيش فهما فقط في رأس الفنان، وفلسفته العقيمة، وتجريله الغامض. قد لا يكون الفنان كاذباً، لكنه الوهم الذي يعيشه ويسيطر عليه يخيل له. وذلك التجريد الذي يمضغه صباح مساء ينعكس على اللوحة فيرى عليها ما في ذهنه! وهكذا يظل المسكين يتخيل المنظر والآخر في ذهنه ويظن أنه قد رسمه على اللوحة فعلاً، حتى يصل إلى نقطة يرى فيها كل ما في العالم كما هو في

ذهنه، لا كما هو في الواقع. وتتضخم الحالة عند المسكين عندما يسعى وبكل قوته إلى إقناع الناس بما يراه.

وقد يظن بعض المشاهدين بأن إتلاف اللوحة سينهي مأساة المسكين! ولكننا نقول له: فكان ماذا؟! سيرسم غيرها. إذن..... الحل يكمن في أن يتغير عقل هذا الفنان، ويخرج من مدرسته التجريدية ويعود إلى الواقعية، ليرى العالم كما هو فعلاً، لا كما يصوره له خياله، وترسمه أحلامه.

إن واقع العالم الإسلامي هو «البقرة والحشيش»..... تجريد في تجريد. إنه لا شيء ولكن كل واحد منّا يراه كما يحب لا كما هو في الواقع.

ومنذ قرون -ولا أقول منذ عقود- والتجريد يزداد ويزداد حتى لم نعد نكلف أنفسنا بأن نضرب على الواقع ضربة فرشاة واحدة، ولكننا في الوقت نفسه نستطيع أن نشرح هذا الواقع في مجلدات.

وحديثنا عن هذا الواقع لن يكون عن كل من فيه، ولكنه سيكون عن بقية ترجو ألا يكونوا قد أغرقوا في التجريد حتى أصبحت عودتهم إلى الواقع صعبة. سيكون حديثنا معهم وعن العمل الإسلامي والسائرين فيه، لا لذواتهم ولكن لأنهم يحملون الدين الذي فيه مستقبل الأمة، ولأنهم يمثلون الدين الذي فيه صلاح هذه البشرية جمعاء.

Scanned with CamScanner

الواقع الإسلامي جزء من الصورة كلها، فهو يعاني ممّا تعاني منه الصورة، وكل ما تراه من أمراض في الواقع، تراه في هذا الجزء، لم يتغير شيء..... اللافتة فقط والشعارات فقط وغير ذلك بقيْ على ما هو عليه، وهذا حديث ذو شجون.

ها قد مضى مئة عام، تقريباً على العمل الإسلامي المعاصر، فأين تقف الحركة الإسلامية؟ الجواب البدهي: كان يجب أن تقف على جبل من التجارب والنتائج عمره مئة عام من العمل والتضحيات! ولكن ها نحن نقف على أرجلنا وبصعوبة، نتلمس طريقنا ننظر إلى جبل التجارب من تحت فهو لا يعنينا، وعن بُعد فنراه صغيراً.

ها نحن نقف على أرجلنا نجرب ونضحي ونخسر ونتمنى، وكلّما زاد عجزنا أغرقنا في الأماني وازداد قربنا من التجريد، فنصير نرسم الواقع كما يصوره ذهننا لا كما هو في الحقيقة. وها نحن نخسر الواقع شيئاً فشيئاً في حين أننا نتحدث عن إنجازاتنا وأمانينا، ولا شيء... لا شيء... وها هو واقع الحركة الإسلامية -كما هو واقع العالم الإسلامي كله- لوحة اسمها «البقرة والحشيش».

• • •

كشف الواقع وثقافة الصمت:

أمام هذه الضبابية لا بد من التوضيح وبقوة، حتى وإن كان مؤلماً، لأنه سيوقفنا في مواجهة لوحة انكببنا عليها عقوداً، ثم لـمّا رفعنا الستار فإذا هي لا شيء. إنّ كشف الواقع مهم في إنشاء الوعي الإنساني، وكلّ فكرة أو توجيه تزوّر الواقع هي في النهاية فكرة تبغي تقييد الإنسان، وإبقاءه حيث يقف. إن يقظة الحس النقدي الراشد تؤدي إلى التشخيص السليم، والفهم الراشد ومن ثَم تقديم العلاج الصحيح. يقابل هذه الثقافة ثقافة أخرى قاتلة هي «ثقافة الصمت». تسيطر هذه الثقافة –بشكل عام– على الساحة الإسلامية، وأهم أسبابها الحالة المذهبية –والمذهبية ليست بالضرورة جماعة أو تنظيم، لكنها حالة من التعصب ولو كنت وحدك، ترفض أي معلومة إلا إذا خرجت من داخلها–، التي تشكل عقبة بين الإنسان وبين الفهم، لأنها تموه الواقع، ولأنها لا تستند على أسس صحيحة فإنها تجنح إلى التزوير. والمذهبي غير قادر على رؤية حركة الواقع ولذلك فإنه يسيء فهمه. إن خطابنا ينبغي أن يجلي الواقع، ويبرز الأخطاء والانحراف أمام أنفسنا وأمام الجماهير حتى يتحقق الفهم وتتوجه النفوس إلى اكتساب إنسانيتها الضائعة في ظل ثقافة الصمت. ومن هنا ستكون البداية السليمة لإدراك حقيقة ما نريد.

ومـمّا ينبغي الإشارة إليه أن الإحساس بالواقع دون القدرة على نقده لا يؤدي إلى التغيير المطلوب، فالخطاب يجب أن يكون قادراً على تحويل الإحساس إلى ما هو أكثر منه، بحيث يكون الإحساس قويًّا يقاوم

العقبات التي تحول دون تحويله إلى نقد للواقع. ذاك أن الإنسان قد يحسّ بالواقع كما هو لكنه لا يتوجه إلى نقده، فضلاً عن السعي إلى تغييره، لأنه لا يرى أنه مسؤول عن ذلك.

وقد يرى أنه مسؤول عنه ولكنه يظن أنه غير قادر على التعامل معه.

وقد يسعى ابتداءً إلى النقد والتغيير، ولكنه ينسحب بعد قليل لأن الأمر قد زاد عن حدّه فيرى استحالة التغيير لذلك.

وقد يتجاوز كل ما مر من عقبات نفسية ولكنه مع ذلك لا يسعى للنقد لأنه يهدد منجزاته أو منجزات مذهبه، وهذا مِن أخفى تلبيسات إبليس على المخلصين فضلاً عن غيرهم. وعند هذا الحدّ قد يَنْحر الإنسان كلّ ما يؤمن به من أصول علمية، وحقائق موضوعية، في سبيل عدم نبش ما ركنت إليه نفسه منذ زمن. قال أحد الفضلاء أثناء بحث قضية تاريخية حسّاسة يؤدي بحثها للفهم الذي نتحدث عنه: «دعنا نمت على الفطرة يا شيخ»!!

ولعل الحيلة النفسية الأخيرة تفسر لنا كيف يتحول «المصلحون» إلى أصحاب مصلحة في بقاء الأمور على ما هي عليه، ليس هذا فحسب بل إنهم يحرصون على تصوير الواقع بصورة «معتدلة» «حكيمة» نابذين وراءهم ظهرياً أصحاب الرؤية «المتطرفة» الذين لا حكمة لهم ولا حكماء!! إنهم بما حققوه من إنجازات -بزعمهم- يصبحون جزءاً من

Scanned with CamScanner

الواقع، وكلّ ذلك بحسن نية -قد- ولكنها الحيلة النفسية التي تخفى على أكثر الناس إخلاصاً إن لم يكن فقيه النفس، فقيهاً بواقعه، عليماً بسبيل المجزمين، ولعمري إنها لبضاعة مزجاة أيام كنت تعجز عن عدّ العلماء! فما بالك اليوم وهم قلة غرباء.. «كصالح في ثمود».

• • •

ضرورة المراجعة:

ونحن لا نقول بضرورة المراجعة، وأهمية توضيح الأمور من أجل «الأمة المسلمة» و«الوطن الإسلامي» وحسب، ولكن لأننا حمَلَة دين تنتظره البشرية جمعاء. «إن هتافات كثيرة من هنا ومن هناك تنبعث من القلوب الحائرة، وترتفع من الحناجر المتعبة... تهتف بمنقذ، وتتلفت على «مخلص» وتتصور لهذا المخلص سمات وملامح معينة تطلبها فيه. وهذه السمات والملامح المعينة لا تنطبق على أحد إلا على هذا الدين!»(١)، وصدق سيد رحمه الله، ولكن الأمل في هذا الدين، والمستقبل لهذا الدين. أمّا الحمَلة فعليهم أن يدركوا قضية في غاية الأهمية وهي أنهم مجرد واسطة لحمل هذا الدين وتبليغه للناس كما يريد الله، وأن كرامتهم على الله تنبع من صدق اتّباعهم لأوامره، وإلا فلا كرامة ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ [التوبة: ٣٩]، ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [محمد: ٣٨]. أؤكّد على هذا لأن كثيراً من الدعاة يظن بأن المستقبل

(١) «المستقبل لهذا الدين»: (ص ٧٠).

Scanned with CamScanner

للأمة الغثاء، فقط لأنها تحمل الإسلام ثم لها بعد ذلك أن تفعل الأفاعيل، يظن بأن هذا الوصف يؤهله لهذه الكرامة باستمرار؛ ضربة لازب على الله لا محيد عنها!! إن هذا الدين أضخم وأعظم من أن نكون مستقبله ونحن بهذه الحالة المزرية، وإن حقائق هذا الدين، وإن واقع سنن الحياة أوضح من أن نجهد في استدعائها للتدليل على ما نقول.

ولنترك البشرية قليلاً، ولنتحدث عن إصلاح حالنا في الداخل، وعن ضرورة مراجعة العمل الإسلامي لِمَا هو عليه الآن. إن تعديل المسار أمر صعب، وإن القدرة على التأمل لا يمتلكها إلا القليل، ولذلك فإن المراجعة تتطلب كثيراً من الشجاعة في مواجهة النفس لانتزاع أوهامها، وإسقاط أقنعتها.

يقف العمل الإسلامي أمام تحديات رهيبة جداً، ومخيفة جداً، وإذا لم تتم المراجعة الصادقة فإن الصحوة الإسلامية ستزداد ضعفاً، وستتحول إلى مجرد ظاهرة أتت وانقضت، كغيرها من الظواهر التي لم تحظ بالرعاية والحضانة اللازمتين. لا شكّ بأن هناك مكاسب حققها العمل الإسلامي، لكن السؤال: هل سيحافظ على هذه المكاسب في ظل هذه التحديات؟!

إن البداية المنطقية لهذه المراجعة هي في أن تقدم كل حركة إسلامية كشفاً عن المرحلة السابقة. وعلى ضوء هذا الكشف يمكن أن يحكم، ليس فقط على ماضي هذه الحركات وإنما على جدارتها بالنسبة للمستقبل. بقي أن

Scanned with CamScanner

أقول إن القضية تحتاج لكثير من الصراحة التي قد تُغضب كثيراً من الطيبين، ولكن لا بد مما ليس منه بد لأن الواقع الإسلامي في أزمة شديدة، لا تحتمل المجاملات والهدهدات، ولا تحتمل الغموض الذي يكتنف الصحوة الإسلامية، وختاما أقول:

إن من فقه العبد أن يعرف أهدافه تماماً...

وإن من فقه العبد أن يستوضح طريقه تماماً...

وإن من فقه العبد أن يعرف نقاط ضعفه فيتجاوزها...

ولقد قالوا.. إن الصامت إنسان ميت..

• • •

Scanned with CamScanner

«الفكر السياسي»

إنَّ عملية التغيير والنهضة لا يمكن أن تتم بدون معرفة لعلاقة المجتمع بالسلطة، والوعي على حدود سلطة الحاكم، وهذان الأمران جزء مما يسمى بالفكر السياسي.

ولا أعتقد بأن تقرير هذا الأمر يحتاج لجهد في الإثبات والتدليل.. فهو واضح لا يجادل فيه أحد. فهل هذا واضح في فكرنا السياسي؟ وهل هو ممارس في تاريخنا الماضي والحاضر؟ وهل تحتاج هذه القضية تجليةً وتصفيةً ممَّا علق بها على مرِّ العصور من بدع وشهوات، تماماً كما قامت الجهود لتصفية كثير من أمور الدين مما علق بها من البدع والجهالات؟! وقبل كل ذلك: أليس الفشل في تكرار الانطلاقة الحضارية الأولى، وفشل محاولات التغيير والنهضة عائداً إلى جهل هذا الأمر؟ بل إلى تبني أفكار قاتلة فيه؟

وسأكتفي في هذا الفصل بمناقشة هاتين القضيتين، فلا يكفي فصل لمناقشة كل الجوانب.

... كغيرها من الأمور التي ناقشناها في الفصول السابقة، تدل هذه القضية على أن معركة النهضة والتغيير يجب أن تبدأ بإصلاح الثقافة والمفاهيم، وأنَّ غاية الإصلاح ليست في وضع الأهداف الجميلة للمستقبل،

Scanned with CamScanner

وإنما في تحديد منهج واضح جريء لمناقشة الماضي للإفادة من صوابه وخطئه، وأنه لا بدّ من فحص ومراجعة بعض جوانب من التراث -وأعني به مقولات وسلوكيات البشر- الذي لا زال يفرز قابليات الهزيمة والتخلف وموانع النهوض.

ورفعاً لأيّ حرج علينا أن نذكّر، ولا نملّ من التذكير، أنّ وصف التاريخ أو المنتج الإنساني بأنّه إسلامي لا ينبغي أن يقف حاجزاً بيننا وبين ضرورة المراجعة والتصفية والتنقية. إننا نتحدث عن تاريخ حركة البشر، وعن منتج البشر، وعن مواقف البشر، وهي كلها تحتمل المراجعة والمناقشة لأنها تحتمل الخطأ.

لقد ساهمت عدة أمور بتشويه هذه القضية وانحرافها عن الجادة، سأذكر ما يتعلق منها بدور قطاع واحد من الأمة وهو قطاع الفقهاء والدعاة والوعاظ، فقد ساهم هؤلاء بالانحراف من خلال الأدوار التالية:

- الفقهاء المرتزقة.

- الوعاظ المغفلون.

- الدعاة السلبيون المستقيلون من الحياة ومشاكلها.

- الفقهاء المؤثِرون لسلامة الأمة من أن تطحنها الفتن، المقدّمون لدرء المفاسد على جلب المصالح، وهم بهذا مجتهدون، وهم لذلك مأجورون.

Scanned with CamScanner

ووراء كل أولئك أمة مصدومة بما شجر بين الصحابة رضوان الله عليهم، بدأت منذ عهد الأمويين تفقد إحساسها بالمسؤولية، بفعل فهم أعوج، وجهد موجه من السلطة، وترى أن شؤونها العامة ملك للحاكم يُصرفها كيف يشاء، وأن سعادتها أو شقاءها موكولان لأمانته وعدله، أو لخيانته وظلمه! منذ ذلك الحين انفصل المسلم عن حركة التاريخ..

وعليه حصل ما أشرت إليه في البداية، فلم تعد حدود سلطة الحاكم واضحة أو أنها بلفظ أدق لم تعد محل بحث! كما أن طبيعة العلاقة بين المجتمع بكافة مؤسساته المدنية -كما يعبر عن ذلك هذه الأيام- وبين الحاكم غدت غامضة. فدور الفقهاء في الحسبة انتهى أو كاد، إلا من فلتة هنا أو أخرى هناك، بمعنى أنها لم تكن حسبة مؤسسية لازمة للفقهاء، ملزمة للحكام، بل هي تعتمد على جرأة فقيه، وسعة صدر حاكم، وهي مزاجية على الغالب. على أنني أنبه إلى نقطة غاية في الأهمية وهي أن هذه الفلتات الجريئة لم تكن تمس أصل مشروعية الحكم، أو شرعية وجود الحاكم! وأن سعة صدر الحاكم -المزاجية- كانت بشرط الابتعاد عن هاتين القضيتين. ولا زلنا مذ وعينا تتكرر على مسامعنا نفس الفلتات الجريئة المعدودة، ونفس سعة الصدر المزاجية.

نعود إلى أصل القضية...

من المظاهر الغريبة بسبب الغموض الذي اكتنف هذه المسألة: قضية التوريث!

Scanned with CamScanner

لقد تجذرت مسألة التوريث في الفكر السياسي الإسلامي حتى أصبحت أمراً مفروغاً منه! ولم يكن غريباً ولا مستهجناً أن يفزع الجميع إلى تولية غلام صغير لا يدري ما طحاها! لمجرد أنه ينتسب إلى البيت الحاكم، في حين يترك كبار المسلمين وحكماؤهم، بل ويقفون في الصف ليبايعوا هذا الغلام على السمع والطاعة! وإلى أن يغتال (عبد السوء سيله) الغلام ويذهب في (ستين داهية) يكون قد أفسد ما يتسع خرقه على مئة راتق! ألا يدل هذا على مسافة الخلف بين ما يجب وبين خط الانحراف في قضية السلطة وحدودها؟ وعلى أنها كانت –ولا زالت– في آخر قائمة المفكر فيه في العقل الإسلامي؟ لا جرم فقد نجح معاوية رحمه الله في تحويلها إلى قيصرية كلما هلك قيصر خلفه آخر، بلا منطق ولا حق، فكل حقه أنَّ (بعير جده مرَّ قبل غيره بهذه الديار)!! إنَّ هذا الإسفين الذي دقَّه في جسد الأمة لا يزال ينزف، ويستنزف إنسانها، وأموالها، وأرضها! ولقد أمسى موقف من يخالفه مستهجناً!

ومن أعجب العجب الذي يدل على المستوى الذي وصلت إليه الأمة في هذه المسألة، ما حصل بعد صلاح الدين الأيوبي رحمه الله! وهو أمر قلَّ من ينتبه إليه، إذ بعد كل الجهود والدماء التي بُذلت لتوحيد العالم الإسلامي، وبعد أن استتبَّ الأمر وتوحد أكثر العالم الإسلامي تحت قيادة صلاح الدين رحمه الله! بعد ذلك ما الذي كان؟ كان أن توزع العالم الإسلامي أو وُزِّع بين أولاد صلاح الدين وأخيه!!! وبدأ الأخوة يجاهدون

Scanned with CamScanner

بعضهم بعضاً!! ولـمَّا تبلى بعدُ جثة أبيهم وثيابه!!! وُزِّع وكأنه ميراث شخصي!! نعم... وهل تعجب من هذا الذي كان؟!! هناك ما هو أعجب منه! فهل تعلمون أن الأمر لم يشكل علامة تعجب لدى الأمة، ولم يعترض عليه أحد من الفقهاء فضلاً عن العامة والرعاع!! بل لقد تمَّ الأمر بمباركة كثير من العلماء -أقول كثير، من باب الاحتياط- وبكل سلاسة!! لم يكن الأمر مستغرباً! وكيف يستغرب والغاية حفظ الأمة من الفتن، ويكفي أن الغلام من البيت الأيوبي!! فهل كلفنا درء الفتنة شيئاً؟ ليس كثيراً! فقط ألف عام من حكم النسوان والولدان والعبدان والخصيان!!! لحظة. فهل هناك ما هو أعجب مما مضى؟ نعم هناك فقد بقي عجب ثالث، وهو عجب الكثير ممن يتحدث عن هذا، أو الدخول في مشاريع النهضة والتغيير دون مناقشة هذا الذي كان! ثُم ماذا؟ ما ثَمَّ إلا الخير، فها قد شدنا العرق، ولم لا (فإن العرق دساس) فقد حققنا مباركة مسجلة ليست إلا عندنا، وهي توريث الرؤساء في الجمهوريات الملكية!! . . .

ومن دلائل جهل الحدود في هذه القضية، أن كثيراً من الفقهاء والمثقفين والدعاة يؤرخون لسقوط الخلافة بعام (١٩٢٤) ميلادي! وكأن الخلافة كانت موجودة على الحقيقة! وكأن المسألة مسألة لقب وليكن بعد ذلك ما يكون.

إن الدخول على خط الإصلاح بهذا التصور يعيق أي نهضة ومحاولة للتغيير، لأن التشخيص خاطئ، فهو لا يبدأ من الإنسان وتغيير مفاهيمه،

Scanned with CamScanner

ولا يجوز على مراجعة أحداث التاريخ مراجعة تجريئة تنخل وتصفي. إن مراجعتنا للتاريخ بجزئ قراءة تنتقي البطولات لنتسلى بها وحسب، فهي ليست مراجعات حقيقية، لذلك فإننا نبقى على ما نحن عليه نكرر ونجتر، والله تعالى أعلم، أسأل الله العلي العظيم أن يرزقنا حسن المراجعة، وشجاعة الالتزام.

• • •

Scanned with CamScanner

«المسؤولية: أنا، المحنة، الآخر»

القاعدة القرآنية:

أكدها القرآن صارخة بيّنة، وأرسلها قاعدة قاطعة، في منهج تفسير المسؤولية عن الحدث. كان ذلك بعد معركة أُحد، فقد تعجب الصحابة رضي الله عنهم من هذه الهزيمة كيف تقع، وهم الذين ظنُّوا مدة من الزمن أنهم محصنون من الهزيمة! قال لهم النص الواضح: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا، قُلْتُمْ: أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ: هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥]. وعلى هذا سار الصحابة رضي الله عنهم، كما ساروا على غيرها من القواعد، فكانوا يدركون أن أول مسؤول عن نتائج الحدث هو الشخص القائم عليه، ثم بعد ذلك يفتش عن المحنة، وعن مسؤولية الآخرين.

شكوى الرعيل الأول:

عندما تسمع شكوى أحد الصحابة ممّا يراه بعد عصر الرعيل الأول: «ما أعرف شيئاً ممّا أدركنا إلا هذه الصلاة، وهذه الصلاة قد ضُيِّعت». فلا يذهبنَّ فكرك إلى بعض الممارسات الفردية، أو الشعائر التعبدية مثلاً، بل اعلم أنَّ الأمر أكبر من ذلك، إنه يشكو من تشوّه المفاهيم، وانحراف المبادئ. ومن أهم هذه المبادئ التي بدأ أهل الحق يلاحظون انحراف الناس عنها شعور المسلم بمسؤوليته عن أحداث التاريخ، فقد

Scanned with CamScanner

غدت الإنجازات في حسّه عبارة عن توفيقات ربانية، والهزائم أوالإخفاقات داخلة تحت بند المحنة، أو مؤامرات الآخرين. وكفى الله المؤمنين مراجعة الذات! (هناك ما يدل على أن مفهوم: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾، تم تفريغه من عقل المسلم بقصد: فقد ذكر المقريزي رحمه الله أن معبداً ذهب إلى الحسن البصري فقال له: إن بني أمية يسفكون الدماء ويقولون: إنما تجري أعمالنا على قدر الله تعالى؟ فقال الحسن: كذب أعداء الله).

أنا أم المحنة أم الآخرون؟!

وتحول هذا الموقف إلى منهج حياة، انعكس على كل مواقفنا وتصرفاتنا. وحتى نعرف إلى أي مدى تغلغل هذا المنهج في حياتنا، سأسوق المثال من الرياضة هذه المرة.قفوا معي هذه الوقفة التي يمر عنها الناس دون انتباه، وقد يظنونها هينة، وهي في الحقيقة عظيمة. يضرب اللاعب الكرة فلا تصيب هدفها، فماذا يقول المعلق العربي؟! تَدَخّلت المعارضة! أو عانده الحظ! فماذا يقول المعلق االغربي؟! أخطأ اللاعب. (هنا نقطة لا علامة تعجب لأنه وصف للحقيقة، وحيث الحقيقة فلا عجب). كلمتان خفيفتان على اللسان، قصيرتان، لكنهما عظيمتان في ميزان الحضارة! هاتان الكلمتان فرق ما بين حضارتين، ونمطين في الحياة، وهما في الحقيقة تفسير لتخلفنا، وتراجعنا، وعدم تحقيقنا للإنجازات في كافة مجالات الحياة. فالكلمة الأولى يبقى أصحابها يكررون نفس الأخطاء على

Scanned with CamScanner

اعتبار معاندة الحظ، والإنسان في هذا المنهج لا يشعر بأنه مخطئ، فلا يحاول تقويم أدائه، فضلاً عن تصحيحه. أما في المنهج الثاني فإن الإحساس بالمسؤولية يلاحق الإنسان، ويبقيه متوتراً، لأنه يعرف بأن المؤسسة التي ينتمي إليها قد تستغني عن خدماته بكل بساطة إذا تكرر خطؤه، حتى لو كان الأفضل في مجاله.

وهذا ما حصل تماماً في حركات النهضة والتغيير، لم نتعلم من أخطائنا، فتكررت نفس الأخطاء! لماذا؟! لأننا لا نعتقد بأننا مسؤولون عن الحدث، فبعد كل محاولة فاشلة نُرحل النتائج على ظهر المحنة، ولم لا؟ فالآيات التي تتحدث عن ضرورة الابتلاء تُستدعى بلا كلفة بمجرد الفشل، دون أن نكلف أنفسنا عناء البحث عن مدى انطباقها على الحالة القائمة، أو دون أن نسأل أنفسنا عن دورنا ومسؤوليتنا، وهل استفرغنا وسعنا في التخطيط والإعداد والتنفيذ. إنّ تحميل المحنة والابتلاء في كل مرة أخفق العمل فيها، ولم تتحقق النتائج سهل؛ أسهل بكثير من النظر في أدائنا، ومراجعة جهودنا، فهذه قد تقتضي ضرورة تغيير بناء كامل تعبنا في تشييده، ولذلك فإن سياج هذه الحالة المَرَضيّة: التعصب للموجود، الكِبْر، مصلحة الكيان القائم، خلو قاموسنا من مفردة نقد الذات. كل هذه الأمراض تحول بيننا وبين المراجعة الحقيقية الصادقة. أقول الحقيقية الصادقة لأننا قد نضحك على أنفسنا فنقوم بمراجعة (بزعمنا) ثم تكون النتيجة أنّ: (القائد، أو المؤسس رؤيته صحيحة ودقيقة، وأنّ الأصول التي

قامت عليها الحركة سليمة، وأنّ التجربة موفقة... إلخ). فلماذا الفشل إذن؟! تُجيب المراجعة الكاذبة بأحد ما يلي أو بكل ما يلي: (الهجمة الخارجية والداخلية الشرسة، بعض الأخطاء هنا وهناك من أعضاء الحركة، سُنة الله في الابتلاء، قوة الخصم، إلخ). والنتيجة: (ضرورة الاستمرار على ما كنا عليه، فالأمور بخير، ولا داعي لإجراء أية تغييرات).

فهل وقف الأمر عند هذا الحد؟ للأسف كلّا، فإن جبريتنا، ولا مسؤوليتنا وصلت بنا إلى درجة القبول بالخطأ، بل وأحيانا إلى تقديسه بحيث يتحول إلى نموذج نطلب من اللاحقين احتذاءه ونسخه! إذ عندما نفسر الخطأ على أنه ابتلاء لا يدَ لنا فيه، أو لأسباب خارجة عنّا، فهذا يعني أننا نقبله، ونؤدلجه. وعندما نفسر الخطأ على أنه ضربة لازب لا محيد عنها، وأنها من الله بالمعنى الذي يسلب الإنسان إرادته، فهذا يعني أننا نُقدّس الخطأ، وقد نطلب تكراره من جهة أنه فرصتنا لتقديم الشهداء والمعذبين، فنحن أصلاً قمنا طلباً للشهادة لا لتلك الأخرى التي هي نصر من الله وفتح مبين؛ فهذه طلب أهل الدنيا، الذين يعبدون الله عبادة التجار!.

وادرس إن شِئت الحركات التي قامت منذ الحسين بن علي وعبدالله بن الزبير رضي الله عنهم، إلى ثورات الطالبين المتعاقبة، إلى عصرنا الحالي، كلها محاولات انتهت بالفشل، وكلها اشتركت -تقريباً- بنفس الأسباب التي أدت لذلك الفشل. والعجيب أنّ الحركات المعاصرة التي لا زالت على رأس عملها ترفض أن تقوم بجردة حساب لتعرف ما لها وما عليها، ومنذ

Scanned with CamScanner

عقود لا زال فشلها مستمراً، ولا زالت تقدم الضحايا على مسالخ الطغاة تنفيذاً لسُنة المحنة والابتلاء! وهو التفسير الأساس الذي تقدمه تسويغاً للفشل.

كيف نسعى إلى إحداث نهضة ونحن نكرر أخطاء السابقين، وأخطاءنا، ونرفض مبدأ المراجعة، والنقد، ولا نتخيل أن ما يجري علينا إنما هو بسببنا نحن أولاً وأساساً، وأنّ أعمالنا ما هي إلا اختيارنا للأقدار المعلّقة.. على أدائنا.

إنَّ المراجعة الحقيقية الصادقة لجهود النهضة والتغيير السابقة والحالية يجب أن تبدأ من وضع البرامج والخطط، وقبل ذلك الذوات، تحت سلطة النقد والمراجعة، والدراسة الواعية لأسباب الفشل، والاستعداد للتصرف بناء على ما تقدمه نتائج النقد والمراجعة والدراسة. وكل هذا لا يمكن أن ينجح إلا إذا تخلينا عن الوصفة الجاهزة التي تخلي طرفنا عن أية مسؤولية، وتلحق الأحداث بالمحنة أو بالآخرين.

Scanned with CamScanner

«منهج دراسة التاريخ»

لا أدري -ولست إخال أدري- كيف اشتغل المصلحون بالنهضة والتغيير، دون أن يعالجوا قضايا الاستبداد والظلم -مثلاً لا حصراً- وأثرهما على الأمة! فلا عجب أن فشلت المحاولات!! ومن عجب أنك تبحث في أدبياتنا عن هذه القضية فلا تكاد تجدها إلا فيما كتب الكواكبي! ومن عجب أيضاً -والعجائب جمّةٌ لدينا وفينا- أنَّ أكثر الثورات في تاريخنا قامت وشعارها: نحن أحقُّ بالملك منكم! ومنذ أن رُفع قميصُ عثمان ﷺ طلباً لدمه، والقيم والمبادئ والحقوق والحرية والعدالة إلى آخر قائمة الشعارات تستخدم وعلى مدى التاريخ الإسلامي لنيل المطالب الخفية، فإذا ما تمكن رافعوها من الحكم داسوها بأقدامهم! وهكذا يدور الحال بين طالب ومطلوب، فإذا تاريخنا منذ صِفِّين قصة طويلة من الحروب الأهلية.

ولا أدري مرة أخرى كيف نتحدث عن التغيير؛ ونحن لا ندرس التاريخ كما تنبغي دراسته، فنخشى أن نفتح ملفات تاريخية لا زالت آثارها تعمل فينا إلى الآن، وستبقى تعمل ما دامت حالتنا هذه الحالة.

إنَّ مراجعات النهضة والتغيير يجب أن تبدأ من التاريخ، إذا أرادت أن تصنع التاريخ. وكل مراجعة تبدأ من اللحظة أو تعود إلى التاريخ لتأتيَ به على شكل قصة، فقط لتحافظ على تسلسل الأحداث، فهي مراجعة تحكم على مشروعها بالفشل. وكذلك فإن أي حركة نهضة تخشى من

Scanned with CamScanner

مواجهة الأحداث التي صنعت تاريخنا، وانتهت بنا إلى الأزمة التي نواجهها الآن، هي حركة ترضى لنفسها أن تتعايش مع التناقض، لأنها تغضُّ الطرف عن حالة تاريخية معينة ساهمت في صناعة خط الانحراف، في حين أنها تحارب نفس الحالة في الحاضر!

من أجل ذلك، فإن منهجنا في هذه السلسلة يعتمد على مواجهة التاريخ مواجهة واضحة بلا أي مجاملات ولا تحفظات، وفي سبيل هذا سنناقش قضايا قد تبدو لأول وهلة بعيدة عن موضوع السلسلة، لكنها في الحقيقة هي البداية الصحيحة لكل مشروع نهضوي، يريد في النهاية تقديم رؤية لما كان، ولما ينبغي أن يكون.

... بعد هذه المقدمة الضرورية التي فسرت العناوين السابقة، وستفسر العناوين اللاحقة، نعرض منهجنا في دراسة التاريخ، كي نكون على بينة نحن ومن يقرأ لنا، خاصّة وأننا واجهنا بعض النقد على نقدنا لمحطات في تاريخنا، وكأن هذا التاريخ ومن صَنَعه مُقدّس مُنزّه عن المراجعة والتحليل.

١- أحداث التاريخ الإسلامي ليست هي الإسلام، بل هي سلوك البشر، واجتهاد البشر، الذي قد يرتقي إلى مستوى المنهج، وقد ينحط إلى أسفل سافلين. ومن بدهيات الموضوعية أن المنهج ليس مسؤولاً عن سلوك معتنقيه. وعليه فلا ينبغي أن نلوي أعناقنا ونحن ندرس تاريخنا عن أحداثه

Scanned with CamScanner

-مهما كانت- حذراً من شماتة الشامتين المتربصين! وكما أننا نرفض مناهج المستشرقين الذين درسوا تاريخنا على طريقة الصفحة السوداء التي احتوت على بعض النقاط البيضاء، كذلك فإننا نرفض مناهج بعض المسلمين الذين درسوه على طريقة الصفحة البيضاء التي احتوت على بعض النقاط السوداء! ألا فلننته من قصة الأبيض والأسود، ولندرس التاريخ بعيداً عن إشكالية الألوان، وعن مقررات الحب والبغض المسبقة، ودون ربطه بالدين، ودون تقديس لمن صنع هذا التاريخ، فهم في النهاية بشر يؤخذ منهم ويُردُّ عليهم.

٢- التاريخ لم يمت!

لأنه ليس ذلك الماضي بذلك المعنى الحدِّي الذي يفصل بين الأزمان كما هو الحال في كلام النحاة. إنه الزمن بما فيه من ماضٍ وحاضر ومستقبل. وإذا كان التاريخ يدرس للاعتبار فإن الحدود الفاصلة بين أزمانه تكاد تكون وهمية أو نظرية، فأنت تستطيع وضع الفواصل وأنت تتحدث عن الزمن، لكنك لا تستطيع وضع هذه الفواصل وأنت تتحدث عن العبرة، وعن آثار الحدث، لأن التاريخ كما نفهمه ذِكرٌ لوقائع وأحداث، والوقائع والأحداث متصلة الآثار. إنَّ التاريخ بأحداثه وشخوصه حالة ممتدة في حياتنا لا تنقطع أبداً. ولا تزال آثاره فاعلة في تكويننا وسلوكنا.

Scanned with CamScanner

ولعلّي هنا أطرح رؤية خاصة لدراسة التاريخ، وهي أن أفضل دراسة للتاريخ هي أن تدرسه في الحاضر.

فإن أردت أن تتأكد من الذي حصل، فانظر في الحاضر وارجع إلى الماضي رابطاً النتائج بأسبابها، لتعلم من بعدُ كَم أثَّر فينا هذا التصرف أو ذاك. وبهذا لن يعود التاريخ تسجيلاً لوقائع لا علاقة لنا بها، ولن يعود دورالمؤرخ تسويغ وتمرير تلك الوقائع على أساس: تلك أمة قد خلت! وهنا لن يكون التاريخ رواية رغبات الماضين وصوابهم وخطئهم، لكنه أيضاً أفعالنا ورغباتنا وصوابنا وخطؤنا، إن كل الذي فعلوه نعيشه نحن، وكل الذي كان فيهم هو الآن فينا بشكل أو بآخر، إننا نترجم لأشخاص هم الآن تحت التراب، لكنهم فينا وبيننا يعيشون. إنه تفسير لما جرى كي نفهم ما يجري، ونصنع ما ينبغي أن يكون. وإذن علينا أن ندرس التاريخ في مكونات الحاضر.

٣- التاريخ ليس فرعاً لعلم الوراثة!

أخطر ما وقعنا فيه ونحن ندرس تاريخنا ونستلهمه، هو استدعاء الحدث التاريخي طلباً لتكراره! وليتنا نستدعي الحدث بكل أركانه، إذن لقلنا إننا ندرس لنوفر الشروط الموضوعية التي صنعت الحدث. لكننا نستدعي النتائج فقط! إن محاولة استدعاء حدث ما لمجرد وجود تشابه في ركن من الأركان التي يتكون منها الحدث التاريخي خطيئة قاتلة. مع التنبيه

Scanned with CamScanner

على أنه حتى في هذا الركن الذي ظنناه فيه التشابه قد لا يكون وجه الشبه فيه كاملاً كافياً قابلاً للإسقاط! ومن المضحك المبكي أننا وعلى مدى قرون كنا نطلب أو نتمنى أن تتكرر المشاهد الجميلة في تاريخنا كما حصلت في آخر لقطة متناسين المقدمات الموضوعية التي أدت إلى هذه اللقطة!

أعتقد أن السبب في ذلك هو فهمنا السطحي للسببية التي أكد عليها القرآن، وقامت عليها الحياة. فبمجرد توفر أي تشابه بين ظرف حاضر وبين ظرف ماضٍ تجدنا نبني قصوراً من الآمال، لعل وعسى أن يتكرر المشهد! لكن سنن الحياة صارمة جداً ولا تحابي أحداً! فالأحداث التاريخية لها طبيعتها الخاصة، وسياقها المحدد وظروفها وأسبابها ومن ثَم نتائجها المنسجمة مع كل هذا. فمثلاً لا يعني أنه كلما قامت فئة مسلمة صادقة لتصادم الأعداء أن يتم استدعاء نتيجة معركة بدر، أو نبدأ بالإنشاد: وجددي حطين! ولماذا؟! لوجود تشابه (ولو بصعوبة) في ركن واحد من أركان الحدث التاريخي، وهو أن هذه الفئة مسلمة كما كان الذين مع رسول الله ﷺ، أو كصلاح الدين ومن معه! هذا النسخ المطابق لا يمكن تكرار نتيجته دون ملاحظة الفروق الدقيقة، والظروف الأصلية، ثم محاولة توفيرها كي تتكرر سنة النصر. إن معركة بدر بمقدماتها ونتائجها وكل ظروفها حدث غير قابل للتكرار هكذا بكل بساطة لمجرد أننا مسلمون كما كان الصحابة رضوان الله عليهم! أو لأن أعداءنا الذين يعتدون علينا كفرة! والملاحظ أننا لا نتطلب تكراراً متواضعاً، بل نطلب مشابهة حذو القذة

Scanned with CamScanner

بالقذة، فنجلس ننتظر تدخل الملائكة، أو انقلاباً كونياً يُدمر أدوات الكفار المتطورة! وقد تناقل الناس في حرب الخليج الثانية (١٩٩١) كيف أن كثيراً من الطيارين الأمركيين قفزوا من طائراتهم بسبب رؤيتهم خيولاً بيضاء عليها رجال بيض الثياب، بيض الوجوه توشك أن تنقض على طائراتهم فيفضل (المسكين) القفز من طائرته على مواجهة تلك الخيول!! ولِمَ لا أليس النصر من عند الله؟! لاحظ كيف يوظف هذا المنهج سُنَّة أنَّ النصر من عند الله في سياق لا يصلح أرضاً لهذه السُنَّة!

ومن الأمور التي تعاملنا معها بمبالغة، وبحرفية، اعتماداً على أن التاريخ جزء من علم الوراثة، قضية جبن اليهود وأنهم لا يستطيعون قتالنا إلا وهم متحصنون في قراهم أو من وراء جدر أو دبابات أو غيرها، والدليل على ذلك قوله تعالى في سورة الحشر: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ...﴾.

والسؤال الذي لا بد منه هنا: هل تتحدث هذه الآية عن بني النضير خاصّة، وهم الذين نزلت فيهم الآيات، أم تقصد أن تقرر لنا خاصية في اليهود؟ وهذا يعني أن هذه الخاصية تورث جيلاً فجيلاً، لا يمكن لليهود الانفكاك عنها. وقبل أن أكمل أود أن أقول بأنني هنا لا أرجح ولا أقرر إذ الترجيح والتقرير يحتاجان لدراسة وافية مستوعبة لا أدّعي تحقيقها الآن، ولكنها مجرد تساؤلات قديمة نامت في الباطن، حتى إذا لزمت إثارتها،

Scanned with CamScanner

أحببتُ مشاركة قارئي فيها. لكن الذي أنا واثق منه أننا بالغنا جداً في الاعتماد على هذا الطبع في اليهود إن كان طبعاً.

ونعود إلى التساؤلات السابقة ونكمل: الآية اشتملت على ثلاث قضايا لا قضية واحدة، الأولى: أنهم لا يقاتلوننا إلا في قرى محصنة إلخ... يعني أنهم جبناء.

الثانية: أنَّ بأسهم بينهم شديد... يعني أنهم لا يتفقون.

الثالثة: أنَّ واقع حالهم التشتت وتفرق القلوب، وإن بدوا للناظر الذي لا يعرفهم خلاف ذلك.

الغريب أن المفسرين المعاصرين اعتمدوا في جعل الآية عامة في اليهود في كل عصر أنهم يحرصون دائما على القتال وهم محصنون. وهذا استدلال من الواقع دلَّ عليه الواقع في كثير من الأحيان. لكن هل يدل واقع اليهود على القضيتين الأخريين؟! أليس اليهود اليوم على قلب رجل واحد؟ ألم يستطع اليهود الوصول إلى آلية ينظمون بها خلافاتهم؟ ومن الذين بأسهم بينهم شديد بالضبط؟! نحن أم اليهود؟! إن تخلف هاتين القضيتين الخبريتين (والأخبار في القرآن لا تتخلف) عن مطابقة الواقع تسقط الاستدلال بالنص وتعميم قضاياه، وتخصُّه ببني النضير. وعلى كل حال وبصرف النظر عن تحقيق الحق في هذه المسألة، فإنَّ المبالغة في التعامل مع أن الجبن ماركة مسجلة يهودية، وأنه قد يكون بعض اليهود شجعاناً،

أوصلنا إلى مآسي في إدارة صراعنا معهم، وإلى خلل رهيب في فهم وتفسير ما حقّقوه على أرض الواقع، فقد ألقيت المسؤولية في تفسير ما حقّقوه على تفرق وتخاذل العرب أولاً، وعلى دعم الدول الكبرى ووقوفها وراءهم. وأنا بطبيعة الحال لا ألغي هذين العاملين، لكني لا أكتفي بهما في تفسير واقع صراعنا مع اليهود، كي لا نقع في شَرَك التفاسير الخاطئة والمجزوءة، التي تؤثر على أسلوبنا في إدارة الصراع.

بحسرة أقول لكم لقد تفتح وعيي وأنا أسمع أهلنا الذين عاشوا نكبة فلسطين الأولى عام (١٩٤٨)، يتحدثون عن عجبهم من انتصار اليهود، مع أن واحداً منهم كان قادراً على إغلاق شارع بأكمله لليهود في حارته في فلسطين!! ولقد مات هؤلاء -رحمهم الله- وعلامات التعجب محفورة على وجوههم، كيف انتصر أولاد الميتة علينا!! (أولاد الميتة لقب اليهود عند أهل فلسطين).

حتى نكرر ما نحب علينا أن نستحضر كامل الوصفة، وإلا حدث معنا كما حدث مع ذلك الذي أراد أن يتعلم الطيران!!:

فتش عن مغزاها: أراد أحدهم أن يتعلم الطيران فاشترى كتاباً لتعليم الطيران، واتبع خطواته، وفعلاً طار الرجل، وعندما أراد الهبوط قلب الصفحة فإذا فيها:

... إلى اللقاء في العدد القادم!!!

Scanned with CamScanner

«الدكتاتورية أم الدكتاتور؟!!»

طوال مئة عام، لا بل قرون، هل كنّا نتصارع مع الدكتاتور أم مع الدكتاتورية؟ مع الظلم أم مع الظالم؟ مع الاستبداد أم مع المستبد؟

... باختصار: هل كان صراعنا من أجل القيم أم ضد الأشخاص؟!

يبدو أنّ الإجابة ليست لصالحنا! فالحقيقة أننا كنا نصارع الأشخاص؛ أي الدكتاتور، والظالم، والمستبد. ولم نكن نصارع من أجل القيم. والدليل على ذلك واضح وضوح الشمس، لا يحتاج لمجهود في إظهاره، إنما التجربة التي عاشتها الأمة، فقد كنا نكتشف صبيحة كل انقلاب –وليس ثورة– أننا كنّا نستبدل دكتاتوراً بآخر مع اختلاف الشكل والألوان. أي أننا على رأي الشاعر كنا نستبدل «عماد الدين بأخيه». وكأننا لا ننقم على المستبدّ استبداده طلباً للعدل، بل لأننا نحسده على ما يتمتع به من استبداد فنريد أن نحلّ محله ليس إلا. نحسده على كونه ظالماً، ونحن مظلومين، فننقلبُ عليه كي نستبدل الأدوار!

كانت الحركات التي طرحت النهضة هدفاً، والتغيير غايةً تنتقد الظالم ولكنها تحمل في خلايا أفرادها ظلمَ قرون تبحث له عن تنفيس، فتسعى للحلول محلّ الظالم لتأخذ دوره. ولذلك لم تقع النهضة، ولم يتحقق التغيير.

Scanned with CamScanner

لقد كان التغيير يقع في المؤسسة الحاكمة، ولم يكن يقع في بِنية الأمة الذهنية، ولا في طبيعة النظام الاجتماعي، ولا في القيم والتصورات وطريقة التفكير، وفي النهاية من أين سيأتي الدكتاتور؟ أليس من القاع؟ أليس ممّا يُفرزه المجتمع؟ قطعاً هو لن يأتي من كوكب آخر!

إنَّ الظلم، والاستبداد، والدكتاتورية؛ كل أولئك لا تنشأ في السلطة، صحيح أنها تُنفَّذ من خلال القوة، ولكنها لا تولد معها بل تكون موجودة في النظام الداخلي للإنسان، وعندما يمتلك القدرة تنعكس على واقعه. ونحن لا ننتبه إلى أنَّ الاستبداد لا يقتصر على الحاكم، فمجتمعنا مليء بالمستبدين الصغار الذين يُمارسون الاستبداد كلٌّ على قياسه! ولك أن تقيس الأمور بمقدماتها، فإن رأيتَ من يظنُّ أنَّ أيَّ عمليةِ حوار تهديدٌ لوجوده! أو أنه يمتلك ناصيةَ الحقيقة التي لا يعتريها شكٌّ، فاعلم أنَّه إن تمكّن من خلق الله فسيسحقهم ويستبد بهم.

... ومنذ أن بدأ المُلك العضوضُ في الأمة، يعنّي منذ القرن الأول!!!، وهي تنتقل -على الأغلب- من يد مستبد إلى يد آخر، فلقد كانت صلاحيات الخليفة صلاحيات دكتاتور مطلقة، فمصائر الناس كانت على مزاج الخليفة؛ إمّا أن يقول: (يا غلام أعطه مائة دينار)، وإمّا أن يقول: (عليَّ بالسيف والنطع، اقطعوووا رأسه)!! وقد قطعنا قروننا المستبدة ونحن نفتخر بالخليفة أو الوالي الذي عفا عن المعارض الذي سيق إلى مجلسه لقتله، بعد حوار طريف أدارته سرعة بديهة المحكوم بالقتل!!

Scanned with CamScanner

تخيلوا؟! نسوق عشرات القصص المشابهة لنفتخر بعدالة الحاكم! هذا هو مفهومنا للعدالة، هذا هو مفهومنا للعفو، هذا هو مفهومنا للحكم، واحد يقرر هلاك البشر أو نجاتهم بناءً على مزاجه في ذلك اليوم!!!

جوانب متعددة في الفقه السياسي السنيُّ دجَّنت المسلم، حولته إلى عبد في قفص وليِّ الأمر. ليصبح التاريخُ الإسلامي تاريخَ خضوع الإنسان على يد السُلطةُ المتدينة باسم الدين!! ثم لتكمل السلطة غير المتدينة باسم العَلمانية مسيرة الاستبداد في العصر الحديث!!

خطأ مشاريع النهضة بكل أشكالها أنّها افترضت أنَّ خصومتها مع المؤسسة الحاكمة فقط. وأن الجماهير تقف في صفِّ التغيير، وكل ما تحتاجه هو الصفوة التي تتقدمها! وليس الأمر كذلك بل هو صراع بين النهضة والتغيير، وبين مفاهيم استقرت في الأمة، والجماهير في كثير من الأحيان تدافع عن هذه المفاهيم البالية، وتموت في سبيلها!!

- لقد ارتبط السعي للتغيير دوماً بشخص الحاكم، أو المؤسسة الحاكمة، بمعنى أننا شخصنّا الصراع، ولذلك كان الذي يحصل أننا كنا نستبدل مستبداً بآخر يحمل في ثقافته الداخلية بذور الاستبداد والقمع التي تربى عليها، وانتقلت إليه بالجينات، وحتى الأمثال التي كانت أول ما يطرق أسماعنا! الأمثال التي علمتنا الخضوع للقوي، أو لليد التي لا نقدر عليها، لا لأننا نكره الظلم بل لأننا لا نقدر عليها، فنشأنا نلعن اليد التي

Scanned with CamScanner

نُقبلها، وندعو عليها بالقطع، في الوقت الذي نتمنى فيه أن نكون مكانها. بمعنى أنَّ الذين قادوا التغيير كانوا يحملون في بنيتهم الداخلية استبداداً مكبوتاً، ما إن تمكَّن حتى ظهر وقام بدوره! وأنَّ الجماهير الذين كان من المفترض أن يرفضوا الديكتاتورية والاستبداد تخاذلوا ورضوا، وفي كثير من الأحيان وقفوا -أو قعدوا- يتفرجون.

أخطر ما في الأمر أننا نحمل في داخلنا شخصيتين متناقضتين تماماً؛

الأولى: شخصية المستبد، الذي يبحث عن فرصة ليمارس استبداده.

والثانية: شخصية الراضي بالاستبداد، القابل للاستعباد!!

والأشد خطراً من ذلك أنه لا يوجد صراع في أنفسنا بين هاتين الشخصيتين! كل ما في الأمر أن كل شخصية تقوم بدورها بحسب الظروف والمتاح! فها هم الذين كانوا يمارسون دور المسحوق زمن صدام حسين بجدارة، يمارسون دور السفاح بتفوق يبدو أمامه صدام حسين تلميذاً!

وها هي نفس مؤسسات المجتمع المدني، والأحزاب التي تحارب الحكومات المستبدة، تمارس الاستبداد داخل أُطرِها الإدراية!

إننا نمارس الاستبداد والديكتاتورية داخل كل إطار يجمعنا، وكل

Scanned with CamScanner

حسب قدرته، مع كل حسب تحمله!! ومع ذلك فالاستبداد عندنا هو ما صدر عن السلطة فقط!!

وكأن اعتراضنا طوال القرون السابقة كان على مصدر ونسبة شدة الاستبداد، لا على الاستبداد نفسه!

أخشى أن تكون الديكتاتورية قد استوطنت في نفوسنا لدرجة يصعب معها أن ننفك عنها، إن لم نقم «بفرط» منظومتنا الفكرية والنفسية، وإعادة تركيبها وفق تركيبة مختلفة.

وإلا فإننا سنبقى ندور في فلك الطغاة، ونُسبح بحمدهم، وننتظر من يُخلصنا منهم.

وإلا فإننا لن نستطيع ممارسة دور الأحرار، حتى لو تمكنا من بعض وسائل وشكليات الحرية!

... في رواية الجذور المشهورة، يثور العبيد على مستعبديهم في السفينة، ويسيطرون عليها، لكن صبياً صغيراً ذا اثني عشر عاماً، يعيد السيطرة على السفينة ببندقية واحدة، لم يفكر العبيد أن يستخدموها، أو يستخدموا غيرها! لقد استسلموا له بكل بساطة، لأن العبودية حالة نفسية، والعزة حالة نفسية، والإنسان لا يمتلك العزة بامتلاك أدوات القوة والعزة. وسيبقى العبد عبداً حتى لو امتلك الدنيا، ما دام يحمل بين جنبيه نفسية عبد.

Scanned with CamScanner

التعليم والسعادة

(سُئِل وزير التجارة الفنلندي: لماذا شعب فنلندا من أسعد شعوب الأرض؟

فأجاب: لستة عوامل؛ عامل من الله، وعامل من أنفسهم، وأربعة عوامل من حكومتهم. وأكمل: أما العامل الأول الذي هو من الله فهو الطبيعة الجميلة جداً.

وأما الثاني الذي من أنفسهم فهو استمتاعهم بالإخلاص في العمل.

وأما الأربعة التي من حكومتهم فهي أولاً: الشفافية وانعدام الفساد الإداري.

الثاني: العدالة الإجتماعية، فالفوارق الطبقية كأدنى ما يكون..

الثالث: الإستقلال التام للقضاء..

الرابع: التعليم الجيد مع الضمان الصحي الممتاز..)

(وسئلت رئيسة فنلندا عن السبب وراء تقدم فنلندا، فقالت:

هناك ثلاثة أسباب: أولاً التعليم الجيد، وثانياً التعليم الجيد، وثالثاً التعليم الجيد).

Scanned with CamScanner

وأقول:

(١) قد لا تعني لنا -معاشر المسلمين- كلمة السعادة على هذه الأرض شيئاً! لا لأننا لم نذقها نحن ولا آباؤنا ولا أجدادنا، فهذا أمر قد اعتدنا عليه! ولكن لأننا نحمل موقفاً مفاهيمياً من السعادة، يقوم على أنَّ السعادة ليست مطلوبة في هذه الدنيا، لأنها تنتظرنا في الآخرة، ولذلك تجد من يُسأل عن مفهوم السعادة فيجيب: (بأنَّ السعادة الحقيقية في الآخرة)، وإن تكلم عن الدنيا فإنما يتكلم عن التقوى والعيش في كنف الإيمان، وأنَّ الحياة الطيبة تتمثل فقط بالإيمان والهداية... وهل لنا اعتراض على هذا المفهوم؟! بالطبع لا، إنما اعتراضنا على حصره بهذه المفاهيم، وعلى استخدامه دائماً في سياق التصبير على الظلم والقهر؛ ظلمِ المانعين أموالهم، وظلم وقهر المتحكمين بنا! فالموجهون يقنعوننا بأن لا ضير، فالدنيا لهم، والآخرة لنا، وأنَّهم لو عرفوا طعم حلاوة الإيمان التي نذوقها لحاربونا عليها بالسيوف! وأن هؤلاء الظلمة من أهل ملتنا، والكفار من غيرنا الذين يربطون السعادة بسعادة الدنيا لهم جهنم وبئس المصير -وهذا صحيح- فدعوهم وسعادتهم المُتوهَّمَة. دعوهم يأكلوا خضراءكم، ويجلدوا ظهوركم، ويدمّروا حياتكم! فنذهب بعدها والفرح يغمرنا -لا ليس الفرح فالله لا يحب الفرحين!!- بل الرضى، لننام مِلأ جفوننا عن شواردها، ويسهر الظلمة والكفرة جرَّاها ويختصمون!

(٢) وهل صحيح أن الله سبحانه لا يحب الفرحين هكذا بالمطلق كما

Scanned with CamScanner

فهم بعضهم ذلك مستدلاً بقوله تعالى حكاية عن قوم قارون الذين قالوا له: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]. هل يكره الله سبحانه فرح الناس المطلق أي لأنه فرح؟!

الأمر ليس كذلك، تنزّه الله عن ذلك، فالسياق هنا سياق قوم ينبّهون رجلاً فَرِحاً بماله، متكبّراً لغناه، فيقولون له (لا تفرح فرح البطرين الذين لا يشكرون النعمة، ولا تفرح بهذه الدنيا، وتفتخر بها وتلهيك عن الآخرة)، فالفرح المذموم هو الفرح بالدنيا ومظاهرها مع كفر النعمة، والغفلة عن الآخرة.

(٣) لقد خلقنا الله عز وجل لغايتين؛ عبادته، وعمارة الأرض، وكلا الغايتين لا يمكن أن تتحقّقا وفق مراد الله إلا ونحن سعداء في الدنيا، الأمر الذي لا يتعارض مع طلبنا لها في الآخرة. لقد طلب الله منا أن نُعمِّر الحياة بهمّة، وأن نحياها بسعادة: فالله سبحانه قد امتنّ علينا بالنعمة، والإحساس بالنعمة كما ينبغي عين السعادة، وما أجمل العنوان الذي وضعه الراغب الأصفهاني رحمه الله لكتابه الذي يعبر فيه عن هذه الحقيقة: «تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين». قال رحمه الله: «... وأما السعادتان فإحداهما المذكورة في قوله تعالى ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾، والثانية المذكورة في قوله تعالى ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِي ٱلْجَنَّةِ﴾»[1].

(١) (ص ٣) من الكتاب المشار إليه.

Scanned with CamScanner

(٤) نعود إلى فنلندا، الفنلندي سعيد لأنَّ كرامته مضمونة، ولأنه مُؤَمَّن صحياً، ويتعلم مجاناً. من قال إنَّ الحياة الطيبة مقترنة بالفقر والقهر والمرض؟! ألا يمكن أن نجمع بين حياة طيبة بالإيمان، وبين الصحة والكرامة والكفاية؟ ألا تتمّ سعادتنا إلا بتأجيلها إلى الآخرة، وترك الدنيا للمتسلطين والقاهرين؟!! .

(٥) في فنلندا (لا يقولون حكومتنا الرشيدة، وهم لا يعرفون التلاحم، ولا يتبعون سياسة الباب المفتوح؛ بل أبوابهم مغلقة! وبالتنظيم والقانون يأخذ كل ذي حقّ حقّه)[١].

سياسة الباب المفتوح مِنَّةٌ يُقدمها بعض المسؤولين في الدول المتخلفة لأن القانون فيها له طبيعة السلم الموسيقي فهو ليس على طبقة واحدة، ولا توجد نغمة واحدة للعزف على القانون بل توجد نغمات بحسب العازفين! فيضطر المواطن إلى اللجوء للمسؤول الكبير ليحلَّ مشكلته على طريقة (بوس اللّحى)! المسؤول هناك لا وقت لديه لقراءة عرائض أحوال للظاليم، ولا يشتغل حلّال مشاكل، لأنه أصلاً لا يمتلك سلطة تُجيز الممنوع، وتمنع المباح، فلهذه الأمور قضاءٌ مستقلٌ إستقلالاً تاماً.

ولماذا الإعلان صباح مساء عن التلاحم بين الحكومة وبين الشعب؟ هم لا يحتاجون لهذا الإعلان فالرئيس هناك لا يأتي وفي ذهنه أنه جاء ليبقى،

(١) كما يقول الأستاذ جميل محمد علي الفارسي.

Scanned with CamScanner

فَلِمَ التلاحم والترابط الذي يؤدي إلى صعوبة الانفصال؟!! إنه عندما لا توجد دولة بالمعنى الحقيقي للدولة، لا بدَّ للمسؤول حينئذ من القيام بدور شيخ القبيلة.

(٦) كيف يمكن أن نحقق النهضة ولا زالت قِيَم العمل لدينا في دائرة غير المُفكَّر فيه؟ وأنا هنا أعمِّمُ ولا أستثني متديّناً عن علماني أو ليبرالي، إذ كلها في نظري دهانات مختلفٌ ألوانُها، فالمتدين يختلف عن الليبرالي العربي، عن العلماني العربي، عن الشيوعي العربي، عن... وعن كل المذاهب والأيدولوجيات باللون الخارجي فقط، فهناك مسلم أخضر، وشيوعي أحمر، وعَلماني برتقالي... لكن داخل كل هؤلاء يقبع إنسان -مجازاً- متخلف منفصم سطحي، يحمل في الداخل ضِدَّه في كلامه وفي أحواله، كلهم عند المنعطفات يفكرون بطريقة واحدة! أولئك يُمارسون العمل بإخلاص ولذّة، ونحن نفرُّ منه بإخلاص ولذّة! ونحن نُعقِّدُ الإجراءات بمتعةٍ وشعورٍ بالنصر...

(٧) القوم استثمروا في التعليم، لأنهم أدركوا بأنه المستقبل الحقيقي، وهو لذلك -كما قالت رئيستهم- السبب الحقيقي لتقدّمهم ولا شيء آخر. وبالتعليم الجيد وصلت فنلندا إلى ما وصلت إليه، فهي تمتلك أفضل نظام تعليمي وفق البرنامج الدولي لتقييم الطلاب (بيسا) في الرياضيات والقراءة والعلوم. فكيف وصلوا إلى هذا:

Scanned with CamScanner

• إقرأ وتدبر وقارن:

- الإرادة السياسية الثابتة في التطوير العام.

- الاستثمار في إعداد المعلمين، وتفعيل مهنة التعليم بانتقاء معلمي المستقبل من بين خريجي الجامعات، وإخضاعهم لبرنامج إعداد يستمر ثلاث سنوات، ثم التدرّب لمدة سنة على التعليم في المدارس بإشراف الجامعات.

- والخطوة المهمة في هذا المجال: أنهم وضعوا كادراً خاصاً للمعلمين، جعلهم الفئة الأعلى دخلاً في البلاد. وبهذا ضمنوا أن يتقدم أصحاب الكفاءات العالية للعمل في مهنة التعليم، فقد صارت هذه المهنة تحظى بشعبية واسعة لدى الفنلنديين، ولهذا هناك انتقاء صارم للمتقدمين للمهنة. والعكس تماماً يحصل لدينا، فمهنة التعليم عندنا في آخر قائمة السلم الاجتماعي، وفي آخر جدول الرواتب، ولذلك فإن الشباب يعزفون عنها، وتكاد أن تكون مسبّةً في مجتمعاتنا، فلا عجب أن لا يتوجّه لها إلا مضطر! وأخبرني بربك كيف تريد من المعلم في العالم العربي أن يُبدع ويعطي وهو يبحث عن عمل آخر بعد الانتهاء من مدرسته ليحسّن وضعه؟ كيف تبحث عن عملية نهضة بمدرس يركض وراء لقمة الخبز، فلا يلتقطها إلا بمشقة؟

- التركيز في عملية التعليم على تطوير ملكة التفكير النقدي.

أما عندنا فالتعليم عبارة عن محو أمية، يعتمد على التلقين، وويلٌ لمن يحاول أن ينقد أو أن يفكر.

بهذا وبغيره استطاعت فنلندا أن تبلغ أعلى القمة تاركةً وراءها كثيراً من الدول التي تمتلك الإمكانات والثروات.

وقد يظنُّ ظانٌّ أن هذا البلد غنيٌّ بالثروات الطبيعية، وليس الأمر كذلك، فهذا البلد صغير، عدد سكانه خمسة ملايين، ويعدُّ من البلاد الباردة جداً، فقير بالموارد الطبيعية.

عنده شيء واحد هو الغابات! كانوا قبل سنوات يُصدّرون الأخشاب، ثم قالوا لم تصدر الأخشاب الخام؟ لم لا نصنع منها شيئاً؟ وبالفعل صنعوا منها الورق، والآن تعتبر فنلندا من أهم دول العالم في صناعة الورق. وأما نحن فلا زلنا نصدر النفط الخام لنستورده بعد ذلك بأضعاف ما بعناه به!

وعندهم شيء آخر من صنعهم وليس مصدراً طبيعياً، وهو جهاز (النوكيا)، ويبلغ دخل فنلندا من هذا الجهاز فقط (٢٥) مليار دولار سنوياً تقريباً.

من الجليد والخشب قدموا للعالم جهازاً يستخدمه كل العالم! لأنهم اهتموا بالإنسان وتعليمه! فماذا قدمنا نحن للعالم عندما أهملنا الإنسان؟! ثم تُفاجأ بأحدهم يجيئك بإعلان يتيه فخراً كتبه أحدُ الحمقى يقول فيه: دبي

Scanned with CamScanner

تهدي للعالم أطول برج! مسرور جداً بتطاولنا في البنيان هذا المسكين! والآن تـمتلأ الإمارات وقطر بالأبراج، وتحتار لمن يبنونها؟ فيرتد إليك الجواب: للتباهي ولمجرد التطاول! وليسكنها الغبار وإخواننا من الجنّ!!

للضحك أو للبكاء:

عندما زار وفد من فنلندا العربية السعودية قبل عامين، وفي مؤتـمر صحفي تقدمت عميدة كلية سعودية باقتراح لرئيسة فنلندا: أن يتمّ تعاون تعليمي بين البلدين!!!!!!! كيف يا ستي العميّدة؟ قالت العميدة: بأن تخصص فنلندا مبالغ مالية لإرسال بعض طلابها للدراسة لدينا!!!!!!! قرأت الخبر قبل أشهر، وإلى الآن وأنا أضحك كلما تذكرته، أضحك والله من كل قلبي! وهو ضحك على كل حال مختلط بالبكاء!

أما بالنسبة للرئيسة فلا أظنّها، وقد ملكت نفسها عندما سمعت الاقتراح مراعاة للدبلوماسية، ما إن دخلت الطائرة إلا وقد أطلقت ضحكة مكبوتة وصلت عنان السماء، متعجبة متسائلة: ماذا لديهم كي نرسل طلابنا ليتعلموه عندهم؟! لكنها على كل حال لا أظنها إلا وقد شكرت العميدة، فقد أعطتها والوفد المرافق لها موضوعاً لقطع الطريق به، ضحكاً ومتعة وأُنساً! ولا حرج عليهم فالطريق طويل طويل بين بلادنا وفنلندا....

مثل صيني: التعليم كنزٌ لا يقدر على سرقته أيُّ لصّ.

«التيه»

قال الله تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٦].

قال الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله في تفسير هذه الآية:

«... ونقول كلمة في حكمة هذا العقاب، تبصرةً وذكرى لأولي الألباب..

إنَّ الشعوب التي تنشأ في مهد الاستبداد، وتُساسُ بالظلم والاضطهاد، تفسد أخلاقها، وتذل نفوسُها، ويذهب بأسُها، وتُضرَب عليها الذلةُ والمسكنة، وتألفُ الخضوع، وتأنسُ بالمهانة والخنوع، وإذا طال عليها أمدُ الظلم تصير هذه الأخلاقُ موروثةً ومكتسبة، حتى تكون كالغرائز الفطرية، والطبائع الخَلْقية، إذا أخرجْتَ صاحبَها من بيئتها، ورفعتَ عن رقبته نيرها، ألفيتَه ينزع بطبعه إليها، ويتفلَّتُ منك ليقتحم فيها، وهذا شأنُ البشر في كلِّ ما يألفونه ويجرون عليه من خير وشر، وإيمان وكفر ....

... أفسد ظلمُ الفراعنة فطرةَ بني إسرائيل في مصر، وطبعَ عليها بطابع المهانة والذلّ، وقد أراهم اللهُ تعالى ما لم يُرِ أحداً من الآيات الدالة على وحدانيته وقدرته وصدق رسوله موسى ﷺ، وبيّن لهم أنّه أخرجهم من مصر لينقذهم من الذلّ والعبودية والعذاب، إلى الحرية والعزِّ والنعيم،

وكانوا على هذا كلّه إذا أصابهم نصَبٌ أو جوع، أو كُلّفوا أمراً يشقُّ عليهم، يتطيرون بموسى ويتململون منه، ويذكرون مصرَ ويحِنُّون إلى العودة إليها!، ولـمّا غاب عنهم أياماً لمناجاة ربه اتّخذوا لهم عجلاً من حُليّهم الذي هو أحبُّ شيء إليهم وعبدوه! لِـما رسَخ في نفوسهم من إكبار سادتهم المصريين وإعظام معبودهم (أبيس)، وكان اللهُ تعالى يعلم أنهم لا تطيعهم نفوسُهم المَهينةُ على دخول أرض الجبارين، وأنَّ وعده تعالى لأجدادهم إنما يتمُّ على وِفق سننه في طبيعة الاجتماع البشري إذا هلك ذلك الجيل الذي نشأ في الوثنية والعبودية للبشر وفساد الأخلاق، ونشأ بعده جيلٌ جديدٌ في حرية البداوة، وعدلِ الشريعة ونورِ الآيات الإلهية، وما كان اللهُ ليهلك قوماً بذنوبهم، حتى يُبيّن حجته عليهم، ليعلموا أنه لم يظلمهم وإنما يظلمون أنفسهم، وعلى هذه السُّنّة العادلة أمر الله تعالى بني إسرائيل بدخول الأرض المقدسة، بعد أن أراهم عجائب تأييده لرسوله إليهم، فأبَوا واستكبروا فأخذهم الله تعالى بذنوبهم، وأنشأ من بعدهم قوماً آخرين، جعلهم هم الأئمة الوارثين؛ جعلهم كذلك بهممهم وأعمالهم، الموافقة لسننه وشريعته المنزلة عليهم».

.... ثم قال رحمه الله... : «إنَّ إصلاحَ الأمم بعد فسادها بالظلم والاستبداد، إنّما يكون بإنشاء جيلٍ جديدٍ يجمع بين حرية البداوة واستقلالها وعزتها، وبين معرفة الشريعة والفضائل والعمل بها. وقد كان يقوم بهذا في العصور السالفة الأنبياءُ، وإنما يقوم بها بعد ختمِ النبوة ورثةُ الأنبياء،

Scanned with CamScanner

الجامعون بين العلم بسنن الله في الاجتماع، وبين البصيرة والصدق والإخلاص في حبِّ الإصلاح، وإيثارِه على جميع الشهوات»[1].

وأقول:

(١) التيه كان ضرورة ليرتقي القوم لمستوى الرسالة، كي تتغير نفوسهم وطباعهم، فالرسالة لا تُصلِح ولا تَصلُح لمن فَقَد بوصلة الحياة، وصارت الذلّة والعبودية طبعاً له. وهؤلاء كان معهم رسول، ومع الرسول كتاب رباني، فيه منهج للحياة، ومع ذلك لم يشفع لهم كل ذلك، ولم ينفعهم كلّ ذلك! لماذا؟! لأنَّ الرسول لا ينجح بين العبيد، والمنهج الرباني لا يرتقي بمن فسدت أخلاقهم بالظلم والاضطهاد. ولكن عندما غيَّر التيهُ نفوسَ القوم، وصاروا مؤهلين لحمل الكتاب والمنهج حملوه، وجديرين بدخول الأرض المقدسة دخلوها، مع أنَّ موسى عليه السلام كان قد مات في التيه، ممّا يدلُّ على عدم ضرورة وجود الرسول بعد قيامه بالتبليغ لحمل المنهج، وللجدارة بوراثة الأرض.

وهذا يفسر التيه الذي نعيشه بالرغم من وجود كتاب ومنهج، ورسول وسنة! وهذا يفسّر نقص الفاعلية أو انعدامها في جهود الإصلاح، وعجزها عن تحقيق النتائج المرجوة خلال العقود السابقة! أو دعني أقل: خلال القرون الماضية!

---

(١) «تفسير المنار».

Scanned with CamScanner

(٢) والسبب في ذلك كما تُعَلّمنا الآية أنَّ البداية يجب أن تكون بإعادة إنسانية الإنسان إليه، قبل الحرص على تعليمه تفاصيل المنهج، لأنَّ المشكلة ليست في الجهل، ولا في بعض الانحرافات، فالإنسان الفعّال الحرّ يستطيع تحقيق أهدافه في الحياة بصرف النظر عن العقيدة التي يتبناها، فالمسألة مسألة أسباب، مَن أخذ بها سيُحقّق مراداته، فعلى هذا أقام الله سبحانه وتعالى الدنيا.

(٣) نعم... البداية تكون بتقديم المنهج للإنسان، ولكن السؤال المهم هنا: هو في الكيفية، إذ عندما يكون الإنسان كما كان بنو إسرائيل، وكما نحن الآن، لا تكون البداية في الحرص على جعله يصلي قبل أن نعيد الحياة إليه، وعلامات الحياة: إعادة الشعور بالعزة إليه، وتعليمه رفض ظروف القهر، وتفهيمه أنّ استحقاق منزلة (وراثة الأرض) إنما تكون بهمّته الموافقة لشريعته المنزلة عليه، وإقناعه أن التغيير المنشود لا يكون بانتظار المهدي أو أيّ مخلص آخر، فالمهدي لن ينجح مع جيش من العبيد، ومجموعة من المقهورين، والـمُخَلِّص لو جاء حقاً فسوف نقتله ما دامت حالتنا هذه الحالة!.

(٤) أقول لكم ما هي المشكلة -كما أعتقد-: إنها في أننا نسعى لإحداث التغيير بنفس الظروف التي كانت سبب المشكلة! إنك لا تستطيع إعادة الحياة للعالَم الإسلامي بنفس الإنسان الذي صنع التخلف. إنّ المشكلة في الإنسان من داخله، وكل الظروف والعوامل التي هي خارج

Scanned with CamScanner

حدود النفس البشرية لها أثرها، لكنها في النهاية ليست هي المعتمدة في تفسير المشكلة، وأي بداية تنطلق من هذه العوامل ستنتهي بالفشل، وسيفشلها ذلك الإنسان الذي يعاني من فقد إنسانيته.

(٥) لا يمكن -بحسب فهمي- أن يُعيد القدس ذلك الجيل الذي ضاعت على يديه، أو الجيل التالي الذي لا يختلف كثيراً عن سابقه، ولا يغرنك زيادة نسبة التدين، أو حالة ما يسمى بالصحوة الإسلامية، فالذين كانوا مع موسى عليه السلام كانوا يؤمنون بالله تعالى، ويُصدقون بموسى عليه السلام، ويُصلّون، ويسبّحون (...إلخ) السلوكات الظاهرة، ولكنهم كانوا مسحوقين، كانوا يعيشون حالة العبودية وإن خرجوا منها في الظاهر، فبمجرد إحساسهم بالجوع أو ضِيق الحياة يلومون موسى عليه السلام على إخراجهم من مصر، فهم يفضلون العبودية مع الطعام والشراب، على حياة العزّ والحرية مع قليل من شظف العيش!

فهل نختلف عنهم؟ كيف؟ ونحن نثور -إحياناً- من أجل رغيف الخبز، وكل المآسي التي نجلس عليها لا تهزّ لنا قصبة، ولا تحرك فينا شعرة؟! والمأساة التي تحركنا هي المأساة الجديدة، ثم لا نلبث أن ننساها، ونضيفها إلى جبل المآسي التي نجلس عليها، وخصومنا يعرفون هذا الخلق فينا لذلك تراهم يسمحون لنا بالتعبير والتنفيس لحظة الحدث لأنهم يعرفون أننا سنبرد بعد قليل وكأن شيئاً لم يكن.

(٦) وهل نختلف نحن؟ ونحن لا نعيش الظلم فقط، بل ندافع عنه، بل ونُشَرْعِنُهُ، ومن بعدُ نُسوِّقه على أنه الوضع الأنسب، خوفاً من أن يأتي وضع (أوسخ منه)! طِبقاً لنظرية (القرد واللي أقرد منه).

(٧) وتبلغ المأساة قمّتها لأننا نجمع في نفس الوقت ثالوثاً يكفي واحد منه لسحق أي أمة، فكيف وقد جمعنا الثلاث: فقد إنضاف لذلنا، وقهرنا، جهلنا بديننا كما هو، وجهلنا بسنن الله في الاجتماع، ثم إننا تشبّعنا بثقافة محرّفة على مدى قرون نسميها كما سمّاها مالك بن نبي رحمه الله: ثقافة قاتلة، أورثت هذه الثقافة تَدَيُّناً مُنحرفاً، أصبح -أي هذا التدين- هو بذاته من أهمّ عوامل الفساد والانحطاط! ولا حول ولا قوة إلا بالله.

إننا نعيش حالة فسق مع أننا نتدافع على أبواب المساجد، ونملأ عرصات عرفات، إننا نعيش حالة فسق ما دام الذي يبنون المساجد هم أنفسهم الذين يساهمون في نشر الفاحشة بين المسلمين! إننا نعيش حالة الفسق ما دمنا أذلّاء مقهورين راضين بالظلم... هكذا يجب علينا أن نفهم الفسق، إذ هكذا أرادنا الله سبحانه أن نفهمه، ولذلك فإنني أقول لكل من يعجب، أو يسوؤه الحال، أقول له كما قال ربنا عز وجل: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

• • •

Scanned with CamScanner

«الخروج من التيه»

يقول الله ﷻ: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ [الرحمن: ١-٤].

قال الراغب الأصفهاني رحمه الله تعليقاً على هذه الآية: «... ونبَّه تعالى بنكتةٍ لطيفة على أنَّ الإنسان لا يكون إنساناً إلا بالدين، ولا ذا بيانٍ إلا بقدرته على الإتيان بالحقائق الدينية، فقال تعالى: "﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾... الآيات" فابتدأ بتعليم القرآن ثم بخلق الإنسان ثم بتعليم البيان، ولم يُدخل (الواو) فيما بينها! وكان الوجهُ على مُتعارَف الناس أن يقول: (خلقَ الإنسان، وعلَّمه البيان، وعلَّمه القرآن)... فإنَّ إيجادَ الإنسانِ بحسَب نظرنا مقدَّمٌ على تعليم البيان، وتعليم البيان مقدَّم على تعليم القرآن، لكن لمّا لم يعد الإنسان إنساناً ما لم يتخصص بالقرآن ابتدأ بالقرآن، ثم قال: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ تنبيهاً على أنه بتعليم القرآن جعله إنساناً على الحقيقة.

ثم قال: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ تنبيهاً على أنَّ البيان الحقيقي المختص بالإنسان يحصل بعد معرفة القرآن، فنبَّه بهذا الترتيب المخصوص، وترك حرف العطف منه، وجعل كلَّ جملةٍ بدلاً ممّا قبلها لا عطفاً، على أنَّ الإنسان ما لم يكن عارفاً برسوم العبادة، ومتخصصاً بها لا يكون إنساناً، وأنَّ كلامه ما لم يكن على مقتضى الشرع لا يكون بياناً»[1].

---

(١) «تفضيل النشأتين» (ص ٧٠).

وأقول:

(١) اتفقنا في الفصل السابق -كما أفترض- أنَّ الأمة تعيش مرحلة التيه، وأنَّ أهمّ معالم هذه المرحلة: حالة الرضى بالذل والظلم والقهر، وحالة الجهل بمفاهيم الدين المُحرِّكة، وممارسة حالةٍ من التديّن المنحرف بمفاهيم ميتة قاتلة هي السبب الحقيقي وراء أزمة الأمة، والتي لا تُغني عنها مفاهيم التدين الفردي أو مظاهر التدين في باب الشعائر أو بعض السلوكات.

(٢) وفي التيه وبهذه المواصفات لا يستطيع الإنسان أن يحمل منهج تغيير، ومشروع نهضة، لسبب بسيط؛ هو أنه لا يكون إنساناً في هذه الحالة! ومن لم يكن إنساناً كيف له أن يفكر بالتغيير أو النهضة فضلاً على أن يعمل بهما؟! إنه إنسانٌ -وافق الأصفاني على وصفه بالإنسان على مقتضى تعارف الكافة، أما قضية العقل والشرع فتقتضي أن لا يُسمَّى به إلا مجازاً- بلا أحاسيس، بلا شعور بالأزمة، بل إنَّه في أحيان كثيرة يدافع عن الأزمة!!!.

(٣) هذه الحالة لا يستطيع الإسلام أن يُنتج فيها، لأنه لا يمكن أن يعمل في ركام إنسان، أو مع إنسان مجازي على رأي الأصفهاني! الإسلام جاء ليتفاعل مع إنسان جاهز للتفاعل، وإلا فإنّ النتيجة ستكون مأساة بلا حدود، فإن الأرض غير القابلة لاستقبال الماء لن تَفيد ولن تُفيد، قال الله تعالى تأكيداً لهذا المعنى المهم: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ:

Scanned with CamScanner

أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢]. قال ابن كثير تعليقاً على هذه الآيات: «وهذا من جملة شقائهم أنّ ما يهدي القلوب يكون سبباً لضلالهم ودمارهم، كما أن سَيِّء المزاج لو غُذي بما غذي به لا يزيده إلا خبالاً ونقصاً». نفس المنهج يفعل فعلين؛ فمرّة يكون سبباً في الهداية والتقدم، وأخرى يكون سبباً في الضلالة والتأخر!! وهذا دليل على أن العبرة بالمتلقي وقابليته الأساسية للتفاعل، إذ حتى المنهج الإلهي لا ينجح إلا مع الإنسان.

(٤) والنكتة التي نبَّه إليها الأصفهانيُّ في غاية الأهمية، فالإنسان لا يكون إنساناً إلا بالدين. ولكننا نعكس فنقول: وكذلك فإن الدين لا يؤدي دوره إلا مع الإنسان. إنَّ الدعوة الإسلامية لم تنجح إلا لأنَّها نزلت على إنسان الجزيرة العربية الذي يمتلك القابليات لتحقيق التغيير والنهضة. فالله أعلم حيث يجعل رسالتَه، يعني على من؟ وفيمن؟ وأين؟ هكذا أفهمها، ولا أحصرها في شخص النبي ﷺ. ولقد كانت هذه الخيارات الثلاثة الموضوعية أحد أهم أسباب نجاح التغيير على مستوى الدعوة، وعلى مستوى الدولة.

Scanned with CamScanner

وكان هذا ضمن نطاق عالم الأسباب، وسنن الله الجارية لا سنن الله الخارقة. إن الدعوة الإسلامية نجحت بالتخطيط والعمل لا بالمعجزات، وتقدمت بجهد إنسان فعَّال، لا بإنتظار مسلمٍ يتوقع التغيير لأنه يصلي ويصوم ويحج ويزكي... .

(٥) وهكذا فعلى الذين يريدون تكرار التجربة، والخروج من التيه، البدء من صناعة الإنسان، وإعادة صياغة المسلم الذي فقد إنسانيته نتيجة تراكمات تاريخية كثيرة سنأتي على ذكرها في حينه. لقد مضى حين من الدهر وحركات التغيير والنهضة، هذا إن كان في ذهن بعضها تغيير ونهضة، تبدأ من نقطة المعرفة والسلوك، اعتبروا أن الذي ينقص المسلم بعض المعرفة، وشيء من السلوك، أو أنهم اعتقدوا أنها أزمة معلومات، أو أزمة وعي على بعض المظاهر، فإذا بنا وبعد عشرات المحاولات نتحرك في مكاننا، إذا بنا نغزل ثم ننقض غزلنا، وكان إنسان التغيير الذي توهمنا أننا أعددناه ينقضُّ على أمته بعد أن يتمكن، أو يمارس التخلف الذي قام من أجل محاربته! لماذا؟! لأنه قام يصلح وهو يحمل نفس الظروف التي صنعت التخلف والضلال، يعني أنه قام يعمل من داخل المنظومة التي صنعت الجهل والتخلف واللافاعلية!

(٦) لنخرج من التيه علينا أن نعيد إنتاج الثقافة التي حرَّرت وغيَّرت ونهضت بالإنسان، وعلينا أن نبحث عن الإنسان الذي سنعطيه المعرفة والسلوك. السؤال يتلخص في كيفية تشكيل المنهج الثابت الصافي

Scanned with CamScanner

لتقديمه للمسلم مع إلغاء فكرة أننا نتعامل مع مسلم جاهز تنقصه بعض الأمور! إنه ما لم نتخلص من بقايا الأفكار الجاهلية التي تشكل أداءنا فلن نخرج من التيه، وسنبقى ندور ونلف حول أنفسنا كما تاه بنو إسرائيل في مساحة صغيرة من الأرض، حتى جاء جيل يحمل صفات أخرى وبنفس المنهج الذي لم يعمل بين أيدي الساقطين تحرر الجيل الجديد.

• • •

Scanned with CamScanner

«تدينا... ولم نتحضر؟»!!

جاءني سؤال من صديق عزيز، يقول فيه:

أيها أولاً: التحضرُ أم التدين؟ وإذا كان التدين هو عينُ التحضر فلماذا لم تتحضر؟.!!!

في السؤال كمية لا بأس بها من الحيرة والقلق، وأعتقد أن مثل هذا السؤال هو سؤال المرحلة؛ مرحلة الضعف والانحطاط والتخلف والهزيمة وغيرها من قاموس التراجع، فمن الطبيعي أن يُلحَّ هذا السؤال على كل حيٍّ عاقل.

إنه سؤال النهضة الذي بدأ يطرح منذ بدأ الإسلام، لأنه نتيجة اشتباك المسلم مع الحياة، وتفاعله مع المعيار المثال أعني الشرع وسلوك الذين هدى الله.. ولقد كان هذا السؤال يُطرح في كل مرة بشكل يتوافق مع نقطة الوعي التي يقف عليها المسلم والأمة، بمعنى أنه سؤال نسبي يتبع حالة التحضر التي يكون عليها المجتمع، فكلما كانت حالة التحضر مرتفعة كان مستوى سؤال النهضة عن نقص الكمال، أو عن كمال الإحسان، وعندما يكون المجتمع في حالة انحطاط يكون سؤال النهضة عن ترك القبيح كما قال المتنبي:

Scanned with CamScanner

إنا لفي زَمَنٍ تَرْكُ القَبيحِ بِهِ مِن أكثرِ الناسِ إحسانٌ وَإجمالُ

فأنت عندما تسمع كلمة أنس بن مالك ﷺ التي رواها البخاري رحمه الله عن الزهري رحمه الله قال: دخلتُ على أنس بن مالك بدمشق وهو يبكي، فقلت: ما يبكيك؟ فقال: «لا أعرف شيئاً مما أدركتُ إلا هذه الصلاة .... وهذه الصلاة قد ضيعت». تدرك أنه ﷺ يتساءل: لِمَ حصل هذا، وأنه يقوم بعملية تقييم لِمَا آل إليه الواقع. ذلك لأن سؤال النهضة عند تحليله يتكون من ثلاث عمليات:

الأولى: مثال يقاس عليه.

الثانية: انحراف عن المثال.

الثالثة: بديل مرجو.

والمثال الذي يقاس عليه هو الصراط المستقيم، والصراط المستقيم هو نتيجة تفاعل جيل التنزيل مع المنهج، وهؤلاء هم في الحقيقة أسمى حالات التحضر التي تعني تطابق التطبيق مع النظرية تقريباً، أو بعبارة أخرى هي التدين عندما يكون صورة طبق الأصل عن الدين. وعندما يوجد مثل هذا تكون الحضارة في أوجها. فالحضارة إذن هي معارف الوحي متجسدة في أمة.

Scanned with CamScanner

وسؤال النهضة أو التغيير سؤال متواصل أو هكذا ينبغي أن يظل، وفي اللحظة التي تتوقف فيها أية أمة عن طرح هذا السؤال ظناً منها أنها بلغت الغاية، وجازت القنطرة، فاعلم أنها قد بدأت في طريق العودة إلى ما قبل الحضارة.

قد تصلح هذه المقدمة لكشف المغالطة الموجودة في السؤال، فالتحضر هو سعيُ الإنسان إلى الوصول إلى قيم الحضارة، وبما أنَّ الحضارة كامنة في معارف الوحي، فيكون التحضر هو التدين والذي هو سعي الإنسان إلى الوصول إلى قيم الدين. معنى هذا أن التدين غير الدين، ولكن مشكلة العقل المسلم أنه شبك بين الدين والتدين، وقدّم تدينه للعالَم على أنه الدين، فصار من الطبيعي أن يُحمَّل الدينُ جهالةَ التدين أو عجز التدين أو تخلف التدين، ليقال في النهاية إن الجهالة والعجز والتخلف هي الدين بذاته!

نحن تديَّنَّا... نعم لكن كيف؟ وما مدى مطابقة تديننا للدين؟ وما هو مركز الرؤية في تديننا؟ وما هي المعايير التي اعتمدناها في قياس تديننا؟

ودعني يا صديقي أتوسع قليلاً لعل في التوسع شفاءاً فأقول: كل آيدولوجيا تتكون من ثلاث منظومات:

الأولى: منظومة الوجود، والثانية: منظومة المعرفة، والثالثة: منظومة القيم... وهكذا هي العقيدة الإسلامية تتكون من هذه المنظومات الثلاث،

Scanned with CamScanner

وكلٌ من هذه المنظومات تشتمل على مجموعة من المفاهيم أو القواعد أو القوانين. ومن الطبيعي أن تقاس درجة التزام الإنسان بمدى التزامه بهذه المنظومات الثلاث بمكوناتها، وكل خلل في التزام أيٍّ من هذه القيم يؤدي بالضرورة إلى عدم تطابق النتائج مع ما تبشر به هذه العقيدة. فأين المسلمون اليوم من التزام قيم دينهم، حتى يصح لسائل أن يسأل: لقد تدينا فلم لم نصل إلى الحضارة؟!

لقد تدينا وأنتج تديننا واقعاً مختلفاً عمَّا قبل، وقطعنا مراحل معينة في الطريق إلى الله تعالى، لا شكَّ في ذلك. ولكنَّ التدينَ المنتج للحضارة أكثر ممّا قطعنا، وأوسع من مجرد المظاهر التي يظنها العقل المسلم منذ عصر السقوط علاماتِ التدين. إنَّ العُمران (يعني الحضارة بتعبير ابن خلدون) لا يتحقق بمجرد أداء الشعائر، ولا بمجرد تغيير المظاهر. بل هناك مجموعة من علامات التدين تتعلق بالفاعلية في الاشتباك مع الحياة هي التي تحقق -بالاضافة لغيرها- الحضارة، لكن لا يمكن أن يتقدم المسلمون في مجالات الحياة المختلفة إلا بها. وقد يكون الإنسان من زاوية ما في قمة التدين، ولكنه من زاوية أخرى يكون مُتلبِّساً بصفة من صفات التخلف التي تؤثر على فاعلية اشتباكه مع الحياة. لقد كان أبو ذر ﷺ في قمة تدينه وصلاحه، عندما قال له النبي ﷺ: «أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟! إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ». توقف قليلاً عند هذه الكلمة الصاعقة وانظر لمن قيلت؛ قيلت لمن قال فيه النبي ﷺ: «مَا أَظَلَّتْ الخَضْرَاءُ، وَلَا أَقَلَّتْ الغَبْرَاءُ مِنْ رَجُلٍ أَصْدَقَ لَهْجَةً مِنْ أَبِي ذَرٍّ».

Scanned with CamScanner

يا الله.. كم احتوت هاتان الكلمتان من علوم! ماذا أعدُّ لكم؛ أعِلْم النفس؟ أم علم الاجتماع؟ أم علم العقائد؟ إنَّ النبي ﷺ يقول لصاحبه ﷺ: إنك في قمة التدين؛ في صدق لهجتك، وقوة إيمانك، وشدة التزامك، أنت في القمة في كثير من القضايا، ولكنك في بعض القضايا والتي لها علاقة بالتفاعل مع الناس، والاشتباك مع الحياة، والحكم على البشر لم تبلغ بعد حقيقة الدين أي حقيقة الحضارة!

إنك هنا لست متديناً، ولست متحضراً، وإن كنت هناك كذلك فلا تغرنك نفسك، ولا تقل لقد بلغت المنزل، وحزت النجاة.. هناك اطلب من العقيدة نتائجها، أما هنا فليس لك ذلك... هنا ستحصل على نتائج جاهلية لأنك تحمل قيماً جاهلية...

الحضارة منتَجٌ لمجموعة من التفاعلات، الخاضعة لسنة الله سبحانه في خلقه، من يلتزم بها، ويحسن المزج بينها سيحصل عليها، والصلاة هنا وغيرها من القضايا لا علاقة لها بهذه الخلطة إلا في حدود ما يحققه الإنسان من مقاصدها، فمقاصد الصلاة التي أشار إليها المولى جلّت قدرته بقوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ في صلب مكونات المفاعل الحضاري، أما ما تقوم به الأمة الآن فلا علاقة له بكيمياء الحضارة.

ولقد قالها أحد الحكماء السلف ذات يوم ضيقاً بما آل إليه حال المسلمين من فُصام: «لا يغرنك من الرجل كثرة صلاته ولا صيامه، فقد

Scanned with CamScanner

تكون عادة اعتادها يستوحش إذا تركها، ولكن أنظر إلى صدقه في الحديث، وأدائه للأمانة». وتبعه العلامة الفَهِم ابن عقيل الحنبلي رحمه الله فوضع معياراً آخر من علامات التحضر فقال:

«إذا أردت أن تعرف محلَّ الإسلام من أهل الزمان فلا تنظر إلى زحامهم في أبواب الجوامع، ولا ضجيجهم في الموقف بلبيك، ولكن أنظر إلى مواطأتهم أعداء الشريعة». ولحق بهم الغزالي المعاصر رحمه الله فقال مؤكداً أن معركة الحرية هي من صلب مقاصد الدين، وهي من علامات التدين والتحضر: «إذا لم يُسمع صوتُ الدين في معركة الحرية، فمتى يُسمع؟! وإذا لم ينطلق سهمه إلى صدور الطغاة، فلمن أعدَّ إذن». والقوم لا يتكلمون بما توحي إليه خطرات عقولهم ولكنهم يغرِفون من وحي المولى سبحانه عندما قال: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ١٩]. وعندما تتبع أحاديث الرسول ﷺ التي يذكر فيها علامات التدين، وإشارات النفاق ستجد أنها علامات تتعلق باشتباك المسلم مع الحياة، جعلها ﷺ المؤشر الحقيقي لتحضر أو تدين -فالأمر سيان- المسلم.

إنَّ مشروع إحياء النبوة ينبغي له البدء مِنْ هنا؛ من هذا الفهم الذي يُنزل الإيمانَ إلى الأرض في حين يجتهد جند التخلف، وعملاء الجهل على إبقائه في السماء. إن إسلام الناس اليوم هو إسلام ينظر إلى السماء وحسب، إسلام تعمير الآخرة، أما إسلام الأنبياء فهو إسلام عمارة الأرض كما إنه إسلام عمارة السماء، ولهذا أرسل الأنبياء، ومن أجله عُذِّبوا، وقُتلوا، لأنهم أرسلوا لعمارة الأرض أي

Scanned with CamScanner

إنشاء الحضارة.

إنَّ التدين الذي يمارسه المسلمون اليوم لا يصبُّ في مصلحة الدين، ولا يبني حضارة، بل هو تدين يفسد ويزور، ويلهي عن قيم الدين القيِّم ....

ولقد صدق من قال: «إنَّ الدين إذا فسد العمل به كان آلة انحطاط».

• • •

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
أسئلة النهضة	٩
مجرد كلام	٢٠
كيف نقرأ	٢٥
معالم علي طريق النقد	٣٤
نقد ونكد	٤٣
إيقاظ الصحوة الإسلامية	٤٧
إشكالية النموذج	٥٢
ما اتبعتك على أنك نبي	٦١
الواقع الإسلامي	٦٤
المسؤولية	٧٨
منهج دراسة التاريخ	٨٣
الدكتاتورية أم الدكتاتور	٩١
التعليم والسعادة	٩٦
التيه	١٠٤

Scanned with CamScanner

الموضوع	الصفحة
الخروج من التيه	١١٠
تدينا ... ولم نتحضر	١١٥
فهرس الموضوعات	١٢٣

• • •

Scanned with CamScanner

• كتب أخرى للمؤلف:

- الأمة والسلطة باتجاه الوعي والتغيير.

- دراسة نقدية في علم مشكل الحديث.

- السلف والسلفيون رؤية من الداخل.

- الصداقة والأصدقاء.

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner